أعلام الإسلام

ابراهيم جلال



المعز الفاطمي

دائرة المعارف الإسلامية

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

أعلام الإسلام

المعز لدين الله

إبراهيم جلال

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

ديباجة

لا يكون منصفاً لذمة التاريخ ولا وفياً لأهل الأقدار من يتصدى لترجمة علم من أعلام المسلمين كالمعز لدين الله الفاطمى فيرضى بالنزر القليل الذى تصدق به بعض المؤرخين مزوياً بين ثنايا سطورهم فى قالب مَسَخه التعصب والدعاية المأجورة والخوف من بطش الخلفاء والملوك .

فقد ابتلى هذا الإمام وآباؤه من قبل وأعقابه من بعده بالغض من أقدارهم والنيل من أنسابهم والطعن فى عقائدهم ، وهو أثر من آثار التنافس على سلطان الدنيا قامت على آثاره الحروب والفتن والدعايات العريضة ، فصبروا عليها صبر الكرام حتى تصدّى للذود عنهم وتطهير أحسابهم الكريمة من درن الخصومة وسخائم الصدور أبعد الناس عن التشيع فيهم وأدناهم الى مذاهب أهل السنة ، إقراراً بفضلهم وسخاء نفوسهم وسماحة أخلاقهم .

ولقد كان العباسيون من عهد خلفائهم الأولين أسرف خلق الله قتلاً

وأمعنهم تنكيلا وتشريداً فى أبناء عمهم أسباط على وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهما ، فقد تولى كبره أبو جعفر المنصور عام ١٤٥ ثم مضى على سنته ولده الهادى فقتلهم بوادى فخ بمكة عام ١٦٩

وفر من القتل اخوان من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب هما يحيى وإدريس ولدا عبد الله بن الحسن

ثم فتحت أول ثغرة بالملك العباسى العريض نفذ منها عبد الرحمن بن هشام الأموى فارًا من أيديهم فأجاز البحر الى الأندلس فملكها من عاملهم عبد الرحمن بن يوسف الفهرى وخطب لبنى العباس سنة واحدة ثم قطع خطبتهم وجدد أيام الأمويين .

وتوالى أعقاب ابن هشام حتى ملكهم عبد الرحمن الناصر ، فرأى بنى العباس فى النزع الأخير تتناولهم أيدى الموالى والقواد وتعبث بخلفائهم خلعاً وقتلاً .

فلما قتل مؤنس الخادم مولاه الخليفة المقتدر سنة ٣٢٧ . جاهر الناصر باطماعه فنودى به أمير المؤمنين الناصر وضاعف طمعه فى ذلك اللقب ظهور امام الفاطميين على مقربة منه بافريقية والشيعة تناديه بأمير المؤمنين .

ولقد كان الناصر عظيما جليل القدر حريًا بلقب الخلافة وكان نداً معاصراً للمعز الفاطمى يعتد به ولا يستهين بعداوته و بأسه .

ونهض الأخوان يحيى وإدريس العلويان على أطراف دولة العباسيين

من الشرق والغرب ، أما يحيي ففر إلى أقصى المشرق حيث بلاد الطبرستان فأسلم على يديه الديلم واستجابوا لامامته خمسين عاما من ٢٥٠ الى ٣٠١ هـ وأما أخوه إدريس ففر الى أقصى المغرب فأسلم على يديه ملوك البربر واستجابوا لإمامته فكانت له ولأعقابه دولة الأدارسة التى عاشت من ١٧٣ ـ ٣١٣

واندفع سيل العلويين على تراث بنى العباس فنزل بلاد اليمن ابراهيم بن طباطبا وهو علوى حسنى وأحيا بها المذهب الشيعى الزيدى عام ٢٩٠

وانتشرت دعوة العبيديين (الفاطميين) بالمغرب فاستجاب لهم بنو عمهم باليمن وخطبوا لأئمتهم على منابرهم

والفاطميون طبقة من الشيعة الاسماعيلية يقولون بما يقول به سائر فرق الشيعة « ان النبى صلى الله عليه وسلم أوصى بالإمامة لجدهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه »

ولكن تلك الوصية لم تعرف لأحد من أهل النقل ولم يقل بها أحد سواهم من المسلمين

ويقولون إن الإمامة انتقلت بعد علىّ الى ولده الحسن ثم الى الحسين ثم الى على زين العابدين ثم الى ابنه محمد الباقر فولده جعفر الصادق فولده اسماعيل فولده محمد المكتوم فولده جعفر المصدق فولده محمد الحبيب فولده عبيد الله المهدى جد البيت الفاطمى أو العبيدى

وكان عبيد الله المهدى ينزل بلدة سلمية من أعمال حمص الشام مستخفيا

من بطش الخليفة المكتفى لا يجسر أحد من شيعته أن يجهر بإمامته وكان هذا حال سائر الأئمة من أهل البيت فكانت شيعتهم تعرف الإمام بالإمام المكتوم .

وبثّ المهدى دعاته يبشرون بإمامته فى سائر الآفاق فاستجاب له أهل اليمن وبايعه القرامطة ببلاد البحرين ولكنهم أغرقوا وغلوا فى تشيعهم

وكان أنشط دعاته أبو عبد الله الشيعى فدخل المغرب عام ٢٨٦ ، والمغرب لذلك العهد ولايات ثلاث : فكان المغرب الأدنى وفيه برقة وطرابلس ، ثم المغرب الأوسط وفيه ولاية إفريقية (تونس) وما نسميه اليوم بلاد الجزائر ، ثم المغرب الأقصى

وكان المغرب الأوسط أكثر البلاد عمراناً

وكانت القيران حاضرة لإفريقية ومقر ولاة بنى العباس وهم بنو الأغلب

أما المغرب الأوسط (الجزائر) فكانت حاضرته تلمسان ويسكنه قبائل من البربر أعظمهم كتامة ومقرها بالشمال الشرقى ، ويليها زناتة وهوارة ثم صنهاجة وأعلى جباله أوراس منبع الفتن الدائمة والثورات العنيفة

ثم المغرب الأقصى وحاضرته لذلك العهد مدينة فاس مقر الأئمة الأدارسة وأشهر قبائله مكناسة

وكان دخول أبى عبد الله الشيعى الى المغرب الأوسط يدعو لإمامة عبيد الله المهدى الفاطمى فنصرته قبائل كتامة وكانوا من أول أمرهم مخلصين أوفياء للفاطميين

وظل يدعو ويساجل ويقاتل المعاندين من القبائل ويصد عدوان بنى الأغلب ولاة افريقية عشر سنوات من ٢٨٦ ـ ٢٩٦ ، وأعانته قبائل كتامة حتى ظهر على ابن الأغلب وطرده من سائر المغرب واستولى على القيروان سنة ٢٩٦ واستدعى من الشرق مولاه الامام عبيد الله المهدى

وخرج المهدى مع ولده ولى عهده أبى القاسم فطارده الخليفة المكتفى العباسى وأغرى به والى مصر ففاته المهدى ونجا الى بلاد برقة

وتواترت كتب الخليفة الى ولاة برقة وإفريقية والمغرب بالقبض عليه ففات الجميع حتى بلغ مدينة سجلماسة وهى أقصى مدن المغرب مما يلى المحيط وأدناها الى بلاد غانة بالسودان فاعتقله واليها ابن مدرار

ولقد كان هذا حال السابقين من عظماء الرجال الذين أفلتوا من قبضة بنى العباس وشادوا لأنفسهم ولأعقابهم ملكا راسخ البنيان ، فكم لاقى عبد الرحمن بن هشام الأموى من المخاطر والأهوال وهو يعبر أنهار سوريا ويتخطى المسالح مع ولده حتى دخل الأندلس . وكم تجرع إدريس بن الحسن العلوى حين فر من الرشيد العباسى الى بلاد المغرب ، فلقد سلّط الرشيد عليه واليه ابراهيم بن الأغلب لينشر بين الناس الدعاية بالقدح فى نسبه بأبيه فلم يغن ذلك شيئاً ومضى إدريس فى دعوته مؤيداً من ربه فسلط الرشيد عليه رجلا اسمه الشماخ فخالطه متظاهرا بالولاء والمحبة ، ثم قتله بعطور مسمومة فيما يروى .

ولما تم النصر لأبى عبد الله الشيعى قام إلى أقصى المغرب وأخرج المهدى وولده من سجن سجلماسة وحمله إلى إفريقية فبايعه الناس بيعة عامة ونودى بإمامته سنة ٢٩٧ .

ولقد كان لقب أمير المؤمنين من سماة الخلافة الإسلامية . لقب به لأول مرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركهم فيها أحد سواهم .

غير أن الشيعة خصوا على بن أبى طالب رضى الله عنه باسم الإمام نعتا له بالإمامة التى هى أخت الخلافة وتعريضا بمذهبهم فى أنه أحق بإمامة الصلاة من أبى بكر نخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده فكانوا كلهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم فى الخفاء حتى إذا استولوا على الدولة يحولون اللقب فيما بعد إلى أمير المؤمنين . ودعا الشيعة للمهدى ولقبوه الإمام وكان هذا اللقب لولده القائم الذى كان الإمام من بعده فلما استوثق لهم الأمر دعوا للمنصور والد المعز بأمير المؤمنين .

و بنى المهدى مدينة المهدية لتكون حصنا للفاطميين بافريقية عام ٣٠٣ وكان لها بالبحر ثغر يلجأ إليه أسطول عظيم وافتتح جزيرة صقلية و إقليم جنوه الإيطالى وعاش بالمغرب أربعا وعشرين عاما ورأى بعينه حافده المعز وقد ولد بالمهدية عام ٣١٨ هـ .

أحساب هاشم

إن أسوأ ما عرض لنا من بحوث فى تاريخ المعز وآبائه ما تقوله عليهم المأجورون المتملقون لبنى العباس ومن نحا نحوهم ونقل عنهم من الذين كتبوا ذلك القسم من التاريخ ، مع أن التاريخ فن يحتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت. والاخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران وأحوال المجتمع لم يؤمن فيها العثور والزلل .

وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا .

تلك هى قواعد تمحيص الأخبار وضعها إمام من أكبر مؤرخى الإسلام وهو عبد الرحمن بن خلدون ، فقد حاول لأول مرة فى التاريخ الإسلامى أن يضع مقاييس للاحداث يمتحن بها صحيحها من زائفها فكان فى عمله نسيج وحده بين علماء المسلمين وغيرهم من مؤرخى الأمم الأخرى .

وابن خلدون بطبيعة مولده ونشأته المغربية أكثر علماء التاريخ الماما بشئون الفاطميين أو العبيديين ولذلك كان عمدتى فى كثير من المراجع كما كان المرجع لكثير من المؤرخين حتى الذين كتبوا عن المغرب كصاحب كتاب الاستقصا وهو من فحول علماء المغرب، وقد تأثر بأسلوب ابن خلدون ونظراته فى التاريخ تقى الدين المقريزى وكان يعاصره بمصر وتولى الحسبة والتوقيع ونيابة الحكم أيام السلطان الظاهر برقوق فتغلغل فى أعمال الدولة وأتى على تفصيلها أيام الفاطميين .

وعلى ضوء ما بسطناه من قواعد تمحيص الروايات نستعرض ما ذكره بعض المؤرخين من النيل من نسب الفاطميين والقول بأنهم مدسوسون على النسب الشريف وأنهم ينتمون أصلا إلى رجل يدعى ديصان بن سعيد الخرمى

والكلام فى نسب العبيديين (الفاطميين) لم يخلق على التحقيق إلا فى عام ٤٠٣ ﻫ أى بعد أكثر من قرن على ذيوع أمرهم وانتشار خلافتهم وامتداد سلطانهم و بعد أن أوغلوا فى أملاك العباسيين واقتطعوا منها المغرب بأكمله ومصر وسوريا واليمن والحرمين و بعض بلاد الجزيرة وضيقوا المسالك فى وجوههم حتى فى بغداد حاضرة خلافتهم .

وما كان مرجع من قال بنفى نسبهم تحقيق علمى بحث فيه النسب، أو كتب متداولة أو تلاوة مستفيضة من مصادر لا ينالها ريب أو شك ، أو شهادات متواترة ليس فيها زيغ ولا تحامل بل كان تسليما بمحضر كتب فى بغداد فى

شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ بأمر الخليفة القادر العباسى فى معنى الخلفاء المصريين والقدح فى أنسابهم وعقائدهم ، أخذ فيه خطوط القضاة والأئمة والاشراف بما عندهم من العلم وقالوا فى المحضر ما نصه :

هم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى إخوان الكافرين ونطف الشياطين شهادة يتقربون بها إلى الله وشهدوا جميعا أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والخزى والنكال هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليه وعليهم اللعنة أدعياء خوارج لانسب لهم فى ولد على بن أبى طالب وأن هذا الناجم هو وسلفه كفار فجار زنادقة سفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ولعنوا السلف وادعوا الربوبية .

(كتب فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ)

ووقع على ذلك المحضر الشريف الرضى وأخوه المرتضى وابن الأزرق الموسوى ومحمد بن محمد بن محمد العلويون والقاضى أبو محمد الاكفانى والقاضى أبو القاسم الجزرى والإمام أبو حامد الاسفرايينى والقدورى والتنوخى .

هذا المحضر الذى أثبتنا نصه هو مصدر لكل من نفى نسب الفاطميين من على بن أبى طالب رضوان الله عليه فاذا جردناه من القدح واللعن المزرى كان نصه ما يأتى :

(يشهد الموقعون أن الحاكم ومن تقدمه من سلفه أدعياء خوارج لانسب لهم فى ولد على بن أبى طالب) .

ولقد كانت صحيفـة ذلك المحضر خالية من السند والدليل العلمى الذى يدعمها اللهم إلا توقيعات الذين قيل فى ألقابهم ما قيل .

لقد اختلف على بن أبى طالب مع رجل على امتلاك درع فمشى مع خصمه وهو أمير المؤمنين وخصمه يهودى إلى قاضيـه فسأله إن كانت لديه بينة على دعواه فقال لا فقضى لليهودى بالدرع ولم يرض القاضى أن يقضى لإمام من أكبر أئمة المسلمين وهو الذى ولاه القضاء لأنه لم يأت بما يثبت دعواه فكيف يراد بعقولنا أن تسوغ تلك الدعوى التى لاسند لها إلا توقيعات القائلين بها .

على أننا إذا أحصينا كلمات ذلك المحضر لـكانت جملتها ثمانين كلمة ولا تتجاوز كلمات الدعوى المزعومة ربع ما كتب وباقيها شتم ولعن ندع الحساب عليهـا لله .

فأية قيمة لدعوى طغت فيها الأحقاد على وقائعها ، وأى سند هذا الذى ينقض فيه أحد الشهود نفسه ذلك لأن ديوان الشريف الرضى يحمل إلينـا تـكذيبا بيناً للدعوى التى أراد أن يدعمها بتوقيعه فقد قال يحدث عن الخلفاء الفاطميين بمصر :

ألبس الذل فى بلاد الأعادى ... وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا ... ى إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيدا النا ... س جميعا محمـــد وعلى

فبأى القولين نأخـذ كلام الشريف الرضى أنصدق ما أراد أن يزكيه

بتوقيعه من طعن فى نسب بنى عمه فنال من أجله أجرا معجلا وهو نقابة الأشراف الطالبيين فى سائر الآفاق أم نصدق شعره الذى جاء على سجيته فى ساعة خلى إلى نفسه دون مؤثر أو باعث إلا الحق والصدق .

وقد قال ابن خلدون فى تعليقه على محضر أهل بغداد ما يأتى :

« إن شهادتهم كانت على السماع وقد تلون أهل بغداد بلون العباسيين فى ذلك ولكن طبيعة الوجود كانت فى الانقياد إلى الفاطميين وظهور كلمتهم حتى فى مكة والمدينة وهذا من أكبر الأدلة على صحة نسبهم وان من جعل نسبهم إلى اليهود فهو آثم وأن شعر الشريف الرضى كله تثبيت لنسبهم » .

وقال العلامة المقريزى :

« إن بنى على بن أبى طالب رضى الله عنه كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى فهذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف و إنما جاء ذلك من قبل الضعفاء من خلفاء بنى العباس عندما غصوا بمكان الفاطميين الذين انتزعوا منهم بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين واليمن وخطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبة فلما عجز بنو العباس عن مقاومتهم أرادوا تنفير الكافة منهم بإشاعة الطعن فى نسبهم » .

أما ذلك المحضر الذى كتب فى بغداد عام ٤٠٢ أيام القادر فقد شهد عليه شيعة بنى العباس الطاعنين فى النسب والمتطيرين من نسل على بن أبى طالب .

ولقد كان العلويون تحت ترقب الخوف من بنى العباس الذين كانوا بالمرصاد لهم ليغتالوهم فصاروا ما بين طريد وشريد وخائف يترقب ، ولاذوا بالاختفاء فما كاد يعرفهم أحد حتى تسمى محمد بن اسماعيل الإمام جد عبيد الله المهدى بالمكتوم سماه الشيعة بذلك عند اتفاقهم على إخفائه حذرا من أشياع بنى العباس .

وقال ابن الأثير فى تاريخه الكامل جزء ثامن طبعة ليدن ص ١٨ فى معرض الكلام عن نسب عبيد الله المهدى .

إن نسبه صحيح على ما ذكرناه وذهب كثير من العلويين العالمين بالانساب إلى موافقتهم أيضا ويشهد بصحة هذا القول ماقاله الشريف الرضى :

مامقامى على الهوان وعندى	مِقْوَل صارم وأنف حمى
ألبس الذل فى بلاد الأعادى	وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا	ى إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيدا النا	س جميعا محمـــد وعلى
إن ذُلى بذلك الجد عز	وأوامى بذلك الربع رِىُّ

وإنما لم يودعها فى بعض ديوانه خوفا، ولاحجة بما كتبه فى المحضر المتضمن القدح فى أنسابهم فان الخوف يحمل على أكثر من هذا، على أنه قد ورد ما يصدق ما ذكرته وهو أن القادر بالله لما بلغته هذه الأبيات أحضر القاضى أبا بكر بن الباقلانى وأرسله إلى الشريف أبى أحمد الموسوى والد الشريف الرضى يقول : قد عرفتَ منزلتك منا وما لا تزال عليه من الاعتداد بك

بصدق الموالاة منك وما تقدم لك فى الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على ما يضادها وقد بلغنا أنه قال شعرا وهو كذا وكذا فياليت شعرى على أى مقام ذل أقام وهو ناظر فى نقابة الأشراف والحج وهما من أشرف الأعمال ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا .

وأطال الخليفة القول فحلف أبو أحمد أنه ما علم بذلك وأحضر ولده وقال له فى المعنى فأنكر الشعر فقال له اكتب خطك إلى الخليفة بالاعتذار واذكر فيه أن نسب المصرى مدخول وانه مدع فى نسبه فقال لا أفعل، فقال أبوه تكذبنى فى قولى ،؟ فقال ما أكذبك ولكنى أخاف من الديلم وأخاف من المصرى من الدعاة فى البلاد ، فقال أبوه أتخاف ممن هو بعيد عنك وتراقبه وتسخط من هو قريب وأنت بمرآى منه ومسمع وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك، وتردد القول بينهما ولم يكتب الرضى خطه، فحرد عليه أبوه وغضب وحلف أنه لا يقيم معه فى بلد ، فآل الأمر إلى أن حلف الرضى أنه ما قال هذا الشعر واندرجت القصة على هذا .

ففى امتناع الرضى من الاعتذار ومن أن يكتب طعنا فى نسبهم مع الخوف دليل قوى على صحة نسبهم .

(قال ابن الأثير) :

وسألت أنا جماعة من أعيان العلويين فى نسبه فلم يرتابوا فى صحته .

ونعود إلى ذلك المحضر الذى كتب فى ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ والذى

أشير فيه إلى الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي الذى وصفه ابن خلدون بأنه كان مختل الشعور وقال مؤيدا وصفه .

« إن حاله كان مضطربا فى الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة، وأما ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات بإسقاط الصلوات فغير صحيح ولايقوله ذو عقل ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته. وأمامذهبه فى الرافضة، فمعروف ولقد كان مضطربا فيه، ومع ذلك فكان يأذن لأهل السنة من المصريين فى صلاة التراويح ثم ينهى عنها .

واستفاض ابن خلدون فى بيان الأحداث التى نسبت ظلما للحاكم ونقضها. وسواء أصح كل ما نسب للحاكم أو بعضه فان المحققين من العلماء قالوا باختلال شعوره فكيف يحاسب من كان هذا حاله ، ولماذا نخلط بين أعمال الرجل وبين نسبه .

وما كان الخليفة العباسى القادر الذى أثار تلك الضجة حول نسب الفاطميين له شىء من سمات الخلافة وسلطانها أو شبه نفوذ فى الدولة فقد كان خلفاء بنى العباس لذلك العهد لا يملكون من أمر الدولة قليلا ولا كثيرا وليس أدل على ذلك من حال الخليفة المطيع لله الذى عاصر المعز، ذلك أن الروم طغوا على بلاد المشرق عام ٣٥٥ هـ بعد موت سيف الدولة وأوغلوا فى شمال العراق وكان بختيار الديلمى صاحب بغداد والعراق قد طالب الخليفة المطيع بمال يستعين به على رد عادية الروم عن أرض العراق فقال له المطيع :

(إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا فى يدى تجبى إلىّ الأموال، وأما إذا كانت حالتى هذه فلا يلزمنى شىء من ذلك، وإنما يلزم من البلاد فى يده وليس لى إلا الخطبة وإن شئتم أن أعتزل فعلت) .

فكان قوله آخر العهد لخلفاء العباسيين بالملك أو السلطة الزمنية ، وما كان القادر الذى جاء بعد المطيع بخمسين سنة خيراً منه ولا نال من السلطان والجاه إلا دون ما ناله سلفه المطيع .

على أن ملوك الديلم المتحكمين فى بغداد قد اعترفوا بصحة نسب المعز فى وثيقة تاريخية ، فان عضد الدولة الذى كان يحكم بغداد معاصرا للمعز وولده العزيز بالله والذى زوج ابنته للخليفة الطائع لله العباسى قد أقر بنسب العزيز بالله ولد المعز ، وقد ذكر ذلك صاحب تاريخ (النجوم الزاهرة) فقال فى لغة المغيظ المحنق :

« إن الخليفة العزيز بالله بن المعز لدين الله كتب الى عضد الدولة بن السلطان ركن الدولة بن بويه يقول بعد الديباجة :

ان رسولك وصل الى حضرة أمير المؤمنين فأدى ما تحمله من إخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك نحو إمامته ومحبتك لآبائه الطاهرين الهادين المهديين فسر أمير المؤمنين بما سمعه عنك »

فكتب إليه عضد الدولة كتابا يعترف فيه بفضل أهل البيت ويقر للعزيز أنه من تلك النبعة الطاهرة

ولكن صاحب النجوم الزاهرة كان من طبقة المؤرخين الناقمين على الفاطميين المنكرين نسبهم ، ففسر كتاب عضد الدولة تفسيراً ينطوى على التخبط والجهل فقال : إن عضد الدولة متشيع ، وهل التشيع الا حب على وآل البيت؟ وهل من التشيع السكوت على نسب مدسوس على العلويين، فلو كان العزيز بالله بعيداً عن النسب الشريف لبادر عضد الدولة باعلان ذلك صوناً للنسب الشريف من لوثة الغير

لقد دلت الأحداث التاريخية المتكررة أن القدح فى الأنساب العلوية كان سلاح بنى العباس من قديم الزمان ، فهذا الرشيد العباسى كان يتعقب إدريس بن حسن الذى فر من يده الى المغرب فأحدث بين البربر دولة عاشت أجلا طويلا فلما يئس من القبض عليه أوعز الى ابراهيم بن الأغلب عامله على المغرب أن يقدح فى نسبة إدريس الى أبيه ونشر ذلك بين القبائل فلم يغن شيئاً فعمد الرشيد الى رجل من شيعته فدسه إلى إدريس فسمّه ذلك الرجل فى عطور قدمها إليه

وكان عبيد الله المهدى أول الأئمة الفاطميين ينزل ناحية سلمية من أعمال حمص الشام مستخفياً خوفاً من بطش الخليفة المكتفى لا يجسر أحد من شيعته أن يجهر بامامته، فلو كان عبيد الله بعيدا عن النسب الشريف فأى شىء

كان يخافه وأية عماية لحقت شيعة العلويين حتى يظلون بحمايتهم وسترهم رجلا ليس من أهل البيت

لقد خرج عبيد الله المهدى من الشرق سراً إلى مقر إمامته بالمغرب ، فطارده الخليفة المكتفى بالله العباسى وأغرى به عامله على مصر ففاته المهدى وتواترت كتب الخليفة بأوصاف المهدى ونعوته على ولاة برقة وطرابلس وإفريقية والمغرب ففات الجميع فلماذا تقوم قيامة الخليفة فيثير الدنيا والأرصاد والمعاثر حول المهدى لو لم يكن إماماً علوياً صحيح النسب كالسابقين من أسلافه أهل البيت

لقد كان القرامطة شيعة للفاطميين يدعون على منابرهم لأئمتهم ولكنهم انتهكوا أكبر حرمات الإسلام عام ٣١٧ ﻫ فاقتلعوا الحجر الأسود من مكانه بالكعبة وحملوه الى بلادهم ولبث فى حوزتهم اثنتين وعشرين سنة فكان أكبر سبة لحقت بالبيت الحرام تحت سمع العالم الإسلامى وبصره والخليفة العباسى المقتدر عاجز عن رده ، وقد بذل أمراء الترك ببغداد للقرامطة خمسين ألف دينار على أن يردوا الحجر الى مقره فلم يفلحوا

وكان الإمام الفاطمى القائم يومئذ بالمغرب فساءه ذلك العمل وتبرأ من القرامطة ومن سوء فعلتهم وكتب الى كبيرهم كتاباً نثبته للدلالة على مبلغ تورع ذلك الإمام وغيرته على مشاعر الإسلام

« والعجب من كتبك إلينا ممتناً علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من

حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده وحملته الى أرضك ورجوت أن نشكرك فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده »

فغضب القرامطة على الفاطميين وانحرفوا عن طاعتهم

ولقد كان هذا العمل الشائن حقيقاً بثورة الخواطر على الفاطميين لو كان لهم ضلع أو هوى فيه ، فاذا كانوا حقا بعيدين عن النسب العلوى لانتهزها بنو العباس فرصة سانحة وتناولوا نسبهم بالقدح ولكن سكوتهم عن النيل من أنسابهم فى أحرج المواقف التى تمس صميم الإسلام دليل على أن دعوى النسب خلقت خلقاً فى أول القرن الخامس حين بلغت الأحقاد والأضغان أقصى مداها .

ولماذا نأخذ بقول بنى العباس فى صدد نسب الفاطميين وهم خصوم ، أليس تصرف العلويين أنفسهم أنصع فى الدلالة على صحة النسب

لقد كان للأدارسة دولة بالمغرب الأقصى وكانت حاضرتهم مدينة فاس ، فلما ظهر المهدى الفاطمى بافريقية وفتحت جيوشه مدينة فاس كان بها يحيى ابن إدريس الذى نعته ابن خلدون بأنه كان أكثر الأدارسة فضلا وأعلام قدرا وأغزرهم علماً وشجاعة

فاستجاب يحيى لدعوة المهدى وخضع لإمامته و بايعه ، ولو كان فى نسب المهدى لوثة أو مغمز لنفر من دعوته ولشنّ عليه بين البربر حرباً من الدعاية

ولقد قام الدليل على صحة نسب المهدى نفسه من الداعى لإمامته بالمغرب وهو أبو عبد الله الشيعى الذى جمع الناس حوله وفتح له إفريقية وأخضع له قبائل البربر ولـكنه أفسد عمـله وقضى على حسن صنيعه حين سلب السلطة وضيق على المهدى فحرض المهـدى عليه من يقتله ، فلو كان المهدى بعيدا عن نسب العلويين لأظهر أبو عبد الله ذلك لشيوخ قبائل البربر قبـل أن يقتلوه انتقاما من المهدى

ولقد نادى أهل اليمن وأمراؤهم من سلالة الحسن بن زيد العلوى ناشرى المذهب الزيدى باليمن و بايعوا الخلفاء الفاطميين وخطبوا لهم على منابرهم كما خطب الحسن بن جعفر الحسنى للمعز بمكة وكما خطب له الأمراء من بنى الحسين على منبر المدينة

أولئك السادة العلويون هم أولى النـاس بالذب عن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كانوا ليدخلوا على نسبه الشريف دعيـا من المجوس أو اليهود .

وما كان عرض الدنيـا ليذهب بالاحساب الـكريمة أو يعدل فى نظر الأشراف العلويين قطرة صغيرة من الجاه النبوى الذى يتوجون به هامهم

ولقد كان عبد الرحمن الناصر الأموى ـ وهو إلى جانب ملكه بالأندلس عالما بالأنساب ـ من ألد خصوم الفاطميين بالمغرب كل أيامه فأذاقهم من حروبه وتأليب القبائل البربرية صنوفا من الأهوال ومع ذلك ما فكر فى طعن أنسابهم بمثل مقالة بنى عمهم العباسيين .

ولقد كان كافور الأخشيدى عاملا على مصر أيام المعز لدين الله فلما انتشرت دعوة الفاطميين وقدم عليه دعاة المعز أكرمهم واستجاب للدعوة، فلو كان المعز معتل النسب ما خضع له عظيم مثل كافور . وقد خطب أبو المعالى بن سيف الدولة للمعز على منابر حلب وحمص سنة ٣٥٩ .وقد عثرنا فى ابن خلكان على خرافة ساقها بين الأخبار المدسوسة على المعز فأثبتها فى تاريخه بغير أن يكلف نفسه تمحيصها . ولكن الرجل كان جماعا لتراجم بعض المشهورين من الأعلام يرصدها على علاتها ، وقد جاء فيه فى ترجمة عبد الله بن الحسن بن طباطبا العلوى ما يأتى :

وجاء المعز بعد فتح مصر من إفريقية وكان عبد الله بن طباطبا يطعن فى نسبه ، فلما قرب من البلد وخرج الناس للقائه اجتمع به جماعة من الأشراف فقال له من بينهم ابن طباطبا المذكور إلى من ينتسب مولانا فقال له المعز: سنعقد مجلسا ونجمعكم ونسرد عليكم نسبنا. فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس فى مجلس عام وجلس لهم وقال : هل بقى من رؤسائكم أحد فقالوا لم يبق معتبر فسل

عند ذلك نصف سيفه وقال: هذا نسبي، ونثر عليهم ذهبا كثيرا وقال: هـذا حسبي فقالوا جميعا سمعنا وأطعنا.

والمضحك فى رواية ابن خلكان قوله ان عبد الله صاحب هـذه القصة توفى بمصر فى عام ٣٤٨ هـ مع أن المعز دخل القاهرة عام ٣٦٢ هـ أى بعد أربعة عشر عاما من وفاة عبد الله صاحب القصة. وأحسّ ابن خلكان بالحرج والحيرة فزعم أنه نقل هـذه القصة عن شيخه زكى الدين المنذرى وأنه راجعه فى ذلك التناقض فقال له لعل صاحب القصة مع المعز كان ولد عبد الله وليس بعبد الله نفسه.

على أن القصة قد جمعت بين السخف والجهل بالتقاليد ومجالس الخلفاء، فقد كان أول مجلس للمعز باستقبال المصريين حافلا بتقاليد الدولة وعظمتها يشرف عليه قائده ووزيره الأكبر جوهر الذى كان يتولى تقديم الناس إليه على أقدارهم ومراتبهم وما كان الأمر فوضى حتى كان يتقدم الناس جميعا عبد الله بن طباطبا. ولا كان المعز ممثلا يداعب الناس بسيفه مرة و بذهبه مرة أخرى.

ولقد اقتبسنا من ابن زولاق جانبا من حفلة صلاة العيد التى حضرها المعز لترى منها نظام جلوس الناس على أقدارهم قال:

إن المعز ركب يوم الفطر لصلاة العيد إلى مصلى القاهرة التى بناها القائد جوهر وكان محمد بن أحمد بن الأدرع الحسنى قد بكر وجلس فى المصلى تحت

القبة فى موضع فجاء الخدم وأقاموه وأقعدوا موضعه أبا جعفر مسلما وأقعدوه هو دونه ، وكان أبو جعفر خلف المعز عن يمينه وهو يصلى .

فاذا كان عبد الله بن طباطبا قد عرف بين الناس بالطعن فى نسب المعز أ كان يرضى عنه جوهر الذى انفرد بحكم مصر أربع سنوات كاملة قبل حضور المعز ؟ أم كان يدعه حرا طليقا ينال من نسب المعز كما يشتهى ثم يلقاه عند حضوره بالمثالب ؟.

مهد الأئمة

لكل عظيم نابه الذكر من الدلائل والأعلام وخوارق الأحداث قبيل مولده ما يراها الناس و يلمسونها و يتحدثون بوقعها ثم يؤقتون بها أزمانهم فلا يخلو منها جيل ولا زمن مابقيت السموات والأرض وما دامت آيات النبوغ تتنقل من أصلاب البشرية إلى أرحامها .

ولقد كان ميلاد المعز حدثا بالغ الوقع ، ومحنة أليمة الوجع ، وعبئا ثقيل التكاليف على جده القائم ثم أبيه المنصور ثم عليه هو كل أيام طفولته وصباه إلى يوم حمل على رأسه تاج الفاطميين .

فقد ولد بمدينة المهدية فى ١١ رمضان سنة ٣١٨ فدعى معداً .

والمهدية أول حاضرة بناها جد أبيه عبيد الله المهدى لتكون حصنا يصون الفواطم من جفوة البربر وطغيانهم ، وكانت من قبل جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند لم يكن أحسن ولا أحصن من موضعها ، فأحكم أسوارها واتخذ لها أبواباً من الحديد ونقر صخورها فكانت أطيب مقر لأسطوله

ثم قال بعد ذلك «اليوم أمنت على الفاطميات من عدوان المغرب» وله معاذيره فما كانت له قدم راسخة ولا ريح رخاء .

وكان إسماعيل أبو المعز يوم ولد المعز غلاما فى الخامسة عشرة .

فلما مات المهدى عام ٣٢٢ ﻫ كان المعز فى الرابعة وأبوه فى التاسعة عشرة فتى نضر العود، فشب الاثنان فى أحضان القائم الفاطمى وسحائب المحنة تدنو من الأفق رويدا .

فقد كان على رمية السهم منهم داهية الأندلس وصقر بنى أمية عبدالرحمن النـاصر يقفو آثارهم ويرصد حركاتهم من صرحه العالى بغرناطة وحوله ملوك البربر وسائر أمراء المغرب حتى الذين بايعوا الفاطميين ووالوهم إلا قبيلة كتامه فانها ظلت على حبهم وفية .

لقد كانوا حافين بعرشه مقرين بامامته مثقلين برفده وجوائزه يقـاسمونه بغض الفواطم ويعاهدونه على حربهم وانتزاع جذورهم من مغربهم .

وكان الناصر سيد أهل زمانه عزا وسلطانا وحصافة وسخاء ونظرا ثاقبـا فجهز ملوك البربر بالمـال والعتاد وميز منهم شيخ الصحراء وأكبر خوارج المغرب أبا يزيد وأيده بابن خزر الزناتى طاغية المغرب الذى حارب الفاطميين أربعين عاما كاملة دون هوادة ولا رفق حتى بلغ المائة من عمره ومات وسيفه قائم بيده ولسانه رطب بالوقيعة فى أهل البيت وقلبه عامر ببغضهم .

لقد رأى المعز بعينه رايات بنى أميـة خفاقة بأيدى الخارجى أبى يزيد والثائر البربرى ابن خزر وأمير المغرب الأقصى موسى بن أبى العافية .

وقد تضافروا على جده القائم يقاتلونه كل أيام خلافته وكانت اثنتى عشرة سنة حتى ضاع من أيديهم سائر المغرب ثم سقطت مدن إفريقية كاوراق الشجر واحدة بعد أخرى .

وكان المعز وهو فى الثانية عشرة يمشى فى درعه وسلاحه هو وأبوه وسائر أهل بيته وعلى رأسهم جـده القائم يدفعون عن ملـكهم ويحفرون الخنادق حول المهـدية وقد حصرهم العدو خلف الأسوار فـكان يوما عصيبا كيوم الأحزاب الذين حصروا المدينة من كل وجه حتى بلغت القلوب الحناجر ومات القائم تحت الحصار وكان كابيه المهدى صادق الفراسة ملهم الحذر ، فجمع أهل بيته حول سريره وأشار من بينهم إلى حافده المعز وكان يؤثره على سائر أولاده وحفدته فقال : لن يطيب لـكم عيش بالمغرب وسيفتح لـكم أرض الـكنانة رجل من أعقابـكم ولعله ابنى معد فان كان الذى أرجوه من فيض الله عليك فاحمل معك جثمانى واشلاء آبائك الطاهرين .

وتولاها المنصور بعد أبيه والعدو آخذ بخناقه وأهل المهدية يأكلون الجيف فـكتم موت أبيه وتجافى عن ثوب الخلافة ورسومها وقلائدها واستبقى شعار أبيه على المنابر والنقود والبنود حتى يحكم الله .

وسلخ المعز من أيامه سبع عشرة سـنة علم الله أنه طواها تحت ظـلال

السيوف و بين الأسنة حتى صقلته المحن وأرهفته الوقائع فأصبح بسليقته حازما مصابرا كما كان بفطرته شجاعا ، وعلمته غرائز أهل المغرب ان البربر داء وان السيف لهم دواء ما فارقته تلك الخلة حتى أشفى على هجرة المغرب إلى مصر فكان فيما وصى به خليفته (إياك أن ترفع السيف عن البربر) .

واستمال المنصور قبائل صنهاجة وسيدها زيرى بن مناد فجاء لنصرته .

وخذل عنه شيخ الأباضية ابن خزر فكف عن عناده مهادنا ثم قاتل الثائرين أحسن القتال فنفس عن الفاطميين وكانت يدا كريمة ما نسيها المنصور ولا ولده المعز وصار زيرى بن مناد من أركان الدولة .

وخرج المنصور بنفسه يقاتل الخوارج كأحسن أبطال الحروب بأساً وشجاعة ولم يغمد السيف حتى حملت إليه رأس أبي يزيد .

وما نسى المنصور نصيب ولده المعز من العلم والتثقيف فأحاطه بكبار الأئمة والحفاظ يدرسون معه فى العراء وهو فى درعه ولأمة حربه .

واعتاد ذلك الأسلوب من الدراسة فما رئى فى مجلس أو عابر طريق أو قادما إلى ديوان إلا كان بيده كتاب حتى خرج إماما فقيها وعلما من أعلام الدين والأدب خطيباً بليغ الأسلوب كآبائه فى حسن البيان والاجادة .

ومات المنصور قبل الأربعين قرير العين طيب النفس بخليفته المعز وكان المعز لا يرى إلا كان بيده كتاب .

حكى جوهر قائده الأكبر أنه لما فتح مصر جمع من الأسرى عددا كبيرا

فلما جاء المعز إلى مصر أعلمه بهم فقال أعرضهم على واذكر فى كل واحد حاله ففعلت وكان فى يده كتاب مجلد يقرأ فيه فجعلت آخذ الرجل من أيدى جنود الصقالبة وأقدمه إليه وأقول: هذا فلان ومن حاله ماهو كيت فيرفع رأسه عن الكتاب وينظر إليه و يقول يجوز، ثم يعود إلى قراءة ما فى الكتاب حتى أحضرت له الجماعة وكانوا ثلاث مئة أسير .

وكان على صلابته و بأسه سهل الجناح لين الجانب صفوحا عن الاجرام حتى كأنه من كثرة العفو لايعرف من الناس مجرما يغضى عن البربر و يتجاوز عن جهالتهم كلما لجأوا إلى صفحه، وما كان عفوه ضعفا ولا استخذاء ولكنها سماحة الكريم، وكان أحسن خلاله بذله ونداه فقد كان يرى السرور على وجهه وهو يعطى بالىمين و باليسار .

وكان يحضر بنفسه سماط العيد بقصره بالقاهرة فيدعو الناس جميعا فيأكلون وينشطهم إلى الطعام ويعتب على من يتأخر منهم . وكان كثير الخشوع فى صلاته وتعبده .

وصفه أبو جعفر مسلم الحسينى الذى حضر صلاة العيد معه بمصلاة القاهرة وكان خلفه فى الصلاة عن اليمين فقال :

« صلى المعز بالناس صلاة العيد تامة طويلة فقرأ فى الأولى بأم الكتاب وهل أتاك حديث الغاشية ثم كبر بعد القراءة وركع فأطال وسجد فأطال

أنا سبحت خلفه فى كل ركعة وفى كل سجدة نيفا وثلاثين تسبيحة ، وكان القاضى النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير .

وقرأ فى الركعة الثانية بأم الكتاب وسورة الضحى ثم كبر أيضاً بعد القراءة وهى صلاة جده على بن أبى طالب عليه السلام وأطال أيضا فى الثانية الركوع والسجود أنا سبحت خلفه نيفاً وثلاثين تسبيحة فى كل ركعة وفى كل سجدة وجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى كل سورة » ١

وعلق المؤرخ بن زولاق على مذهب المعز فى العبادة فقال :

إن بعض أهل العلم ينكرون عليه القراءة قبل التكبير وذلك لقلة علمهم وقصورهم ثم ذكر سنداً مطولا ينتهى الى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه كان يقرأ فى صلاة العيد قبل التكبير

ودرس المعز منذ حداثته كثيراً من اللغات كالسودانية والبربرية والرومية والصقلية وحذقها قراءة وكتابة فكان يخاطب رسل الملوك من الروم والايطاليين ويطالع بنفسه رسائلهم .

وكان أكبر همه أن يعالج بنفسه شؤون دولته ويمحصها ويستعين بعد ذلك بخبرة أهل الشورى من رجال دولته

وعرف عنه أنه قرض الشعر صغيراً ، وقد عثرنا له على مقطوعات لطاف ولعله كان يسمو بنفسه فى عالم الأدب لو لم تستوعبه أعباء الملك

فمنها قوله :

لله ما صنعت بنـــــا   تلك المحاجر فى المعاجر
أمضى وأقضى فى النفو   س من الخناجر فى الحناجر
ولقد لقيت ببينكم   تعب المهاجر فى الهواجر

ومنها :

أطلع الحسن فى جبينك شمسا   فوق ورد فى وجنتيك أظلّا
وكأن الجمال خاف على الور   د جفافاً فمد بالشعر ظلا

وأصبح المعز سيداً على بلاد المغرب بأقسامه الثلاثة ، فالمغرب الأدنى هو برقة وطرابلس والمغرب الأوسط به افريقية (تونس) ، ثم بقيته ونسميها الآن (الجزائر) والمغرب الأقصى

وكانت غالب قبائل البربر الشهيرة تنزل المغرب الأوسط بولاياته الأربعة وهى بجاية إلى أقصى الشرق وفيها وطن قبيلة كتامة أكبر نصير للفاطميين . ثم ولاية المسيلة وبها وادى الزاب وفيهـا موطن قبائل زناتة التابعين لمذهب الاباضية وكانوا خصوماً ألدّاء للفاطميين أذاقوهم من عذاب الحروب ألواناً ، والثالثة ولاية تاهرت، ومدينة تاهرت كانت حاضرة الاباضية منذ القدم وحولها قبائل مغراوة ، وكثير من بطون زناتة وسيدهم محمـد بن خزر الذى حارب الفاطميين نيفاً وأربعين سنة ومات وقد بلغ المائة

والرابعة ولاية أشير وفيها قبائل صنهاجة وأولئك ناصروا الفاطميين أيام ضيقهم وأقاموا على ولائهم

ومناطق المغرب الساحلية غاية فى الاعتدال صيفاً وشتاء . أما الجنوب فلا يطاق حره ولا برده

ويمتد بالمغرب الأوسط سلسلتان من الجبال متوازيتان تلتقيان فى حدود افريقية (تونس) وبين الجبال سهول خصبة تجرى فيها الأنهار

وللجبال ببلاد المغرب الأوسط خطرها العظيم لأنها تشرف بسفوحها على المدن الكبرى ، فجبال الأطلس الشمالية تشرف من أقصى الغرب على مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط وفى سفوحها من الوسط مدينة تاهرت عش الأباضية ومقر قبائل زناتة ومغراوة كما أن سفوحها الشرقية مناخ قبيلة كتامة

أما جبال الأطلس الصحراوى فأكثرها ارتفاعاً جبل أوراس وهو أعلى جبل بالمغرب بأسره تكتنفه غابات كثيفة فتضاعف من خطره ولذلك كان منبع الثورات والفتن وعلة شقاء الخلفاء الفاطميين جميعاً وكان مفتاح ذلك الجبل من الشرق مدينة باغاية

وكانت بلاد المغرب تدرّ الخيرات قديماً أيام الرومان حتى سموها (اهراء روما) ولكن الحروب والفتن المتوالية أنهكت زروعها فأصبحت بحيث لا تدرّ على الفاتحين ما يكفيهم حتى كان العباسيون يمدون ولاتها بمائة ألف دينار من خراج مصر كل عام

والبربرى من خلقه الفوضى وكراهية السلطة كيفما كان عدلها فهم يحاربون المحتل ثم يحارب بعضهم بعضاً

ولما دخل الفاطميون المغرب فى أول القرن الرابع الهجرى اصطدموا بأربعة من أئمة المسلمين جمعوا فى صعيد واحد

فكان فى إفريقية دولة بنى الأغلب يحكمونها مستقلين ولكنهم يدعون لإمامهم وهو الخليفة العباسى .

وكان أول وال للرشيد على المغرب ابراهيم بن الأغلب عام ١٨٤ هـ

وكان الرشيد حريصاً على استبقاء المغرب متصلا بدولته، وتبين من عبر الماضى أن الثائرين من البربر قد أنهكوا قوى الولاة فاتخذ ابن الأغلب سداً قائماً فى وجوههم كما اتخذ من صداقة شرلمان ملك فرنسا سداً فى وجوه الأمويين فكان ابن الأغلب تابعا لبنى العباس بالاسم ولكنه استقل بالبلاد لنفسه ولنسله من بعده

ولبث بنوه سادة لإفريقية حتى عام ٢٩٦ هـ حين طردهم منها دعاة المهدى الفاطمى وكانت لهم المدن العامرة بالتجارة والخيرات ومعاهد العلم ، وضعف شأنهم بعد أن استسلم أحداثهم للترف والنعيم

وكانت قبائل زناتة ومغراوة ينادون بامام من الاباضية فى حاضرتهم تاهرت والاباضية خوارج خرجوا على علىّ بن أبى طالب ثم هاجروا الى المغرب

أيام هشام بن عبد الملك الأموى وأقاموا به إمارات متعددة وكانت ملتقى دعاتهم مدينة تاهرت

وانتشر مذهبهم بين قبائل زناتة ومغراوة وفى جبال نفوسة التى بطرابلس وكان بالمغرب دعاة لخليفة الأمويين الناصر وكانت وهران مقر دعايتهم وكان الأدارسة يدعون لإمام منهم بالمغرب الأقصى

والأدارسة كالفاطميين شيعة ولكنهم زيدية أتباع جدهم زيد بن على ابن الحسين ، وكانت حكومتهم بالمغرب الأقصى ومقر أئمتهم مدينة فاس التى شادوها وكانوا أهل عدل ورفق برعيتهم

ولهم عامل على المغرب الأوسط يقيم بمدينة تلمسان

وكان أبناء عمهم من الأدارسة متفرقين بسواحل المغرب

واستطاع المهدى الفاطمى بدهائه وحسن سياسته أن يشق لنفسه طريقا بين دعاة الأئمة الأربعة وخصته العناية بقبيلة كتامة فكانت له خير عون على بقية القبائل ما خانت له عهداً ولا خرجت عن طاعته ولا تخلفت عن نصره وكان منهم سواد جيشه وعماده ، وقد بذلوا أرواحهم سخية فداء له ولأهل بيته

ولما أراد المعز أن يطهر المغرب من بنى أمية ودعاتهم أسرعت إليه كتامة وسيوفها بأيديها فأخضعوا المغرب وألقوا بالأمويين فى البحر ثم فتحوا بسيوفهم مصر والشام .

ولما هاجر إلى مصر هاجر بقيتهم معه وتفرقوا فى بلاد الشرق فى سبيل

ملكه وانقرضوا بانقراضه وأكلتهم الأقطار والوقائع وضرب بهم أحسن الأمثال فى الوفاء لأهل البيت الفاطميين .

وتشبه كتامة فى تشيعها قبيلة همدان التى أحبها على رضى الله عنه فقال فيها كلمته المأثورة .

ولو كنت بوابا على باب جنة   لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وتغلب المهدى على أشد خصومه بأسا وهو ابن الأغلب وطرده من المغرب وقطع الدعوة العباسية ثم فتح مدينة تاهرت ودحر قبائل زناته ثم أخضع امام الأدارسة بالمغرب الأقصى .

وكان يوم الأمويين عصيبا فصلناه فى صدر هذا الباب .

شاعر المعز

كانت سنة ٣٤٧ هـ مبدأ للتحول والانقلاب فى موقف الفاطميين من بنى أمية خطته يمين المعز باقدامه وحزمه وشجاعته وانتزع النصر من يد الناصر حتى لقد جمع بيده سائر خيوطه وفى ذلك العام أجاز البحر إلى المعز شاعره العظيم محمد بن هانئ وهجر وطنه الأندلس .

وأبو القاسم محمد بن هانئ أندلسى المولد ولد بضاحية سكون إحدى قرى مدينة اشبيليه عام ٣٢٠ هـ فهو قريب السن من امامه وقبلة مدائحه المعز، وقال أكثر المؤرخين إنه من ولد المهلب بن أبى صفرة الأزدى .

وكان أبوه هانئ من أهل قرية من قرى المهدية عاصمة الفاطمين بافريقية وكان الأب شاعرا فانتقل إلى الأندلس حيث ولد له محمد ونشأ باشبيلية وجلس طويلا إلى علماء الأدب وحفاظ أشعار العرب وأيامهم وتردد على دار العلم بقرطبة ومنها روى شغف اطلاعه ونهم الراغب فى المزيد من العلم واتصل لأول عهده بصاحب اشبيليه فنال منه الحظوة التى عزت على سواه من شعراء

المدينة غير أن ابن هانئ طبع نزاعا إلى التشيع فمال بصره إلى الجنوب حيث مفر الأئمة الذين أخلص لهم الحب وملك التشيع عليه مزاجه وملكة الأدب من نفسه فنطقت جوارحه بحبهم ونم أدبه بتمجيدهم .

وما كان ابن هانئ ليتشيع على أيدى أساتذته فحول الأدب بالأندلس لأن القوم كانوا يمقتون الشيعة وأئمتهـا وقد أثاروا عليهم حربا لا رحمة فيها ولا هوادة .

غير أن أباه هانئاً كان مغربى المولد من أهل مدينة المهدية فما يدرينا لعله كان يتشيع ثم بدت له الهجرة إلى الأندلس فرارا من حروب البربر التى أوقد نارها الناصر على آباء المعز فسرى منه التشيع إلى ولده محمد، على أن ابن هانئ كان كما وصفه طبقات البحاث وحفاظ الأدب (أشعر شعراء المغرب على الاطلاق من المتقدمين والمتأخرين) حتى دعى بحق (متنبى المغرب) وماسما إلى تلك المنزلة من الأدب إلا بحدة ذكائه وخصب خياله واكتناز محاسن اللغة فلماذا لا يكون ميله إلى التشيع اختيارا وافق ميوله ومزاجه وهو العبقرى الفذ فى وضع مختاراته فى المعز حتى قال فيه بعض منصفيه :

(لقد تجاوز بسمو خياله ورقة ما نحت من جمال لغته وأدبه كثيرا من وشى المتنبى لولا أنه غلا فى التشيع) .

فأين خصوم المعز الذين طعنوا نسبه ليروا مظهرا من أكرم مظاهر الخلق ممثلا فى ابن هانئ الناشئ فى مهد بنى أميـة يتقلب فى نعمتهم ويتناول رزقه

من أكفهم ويستقى العلم من حلقاتهم ثم يحظى بعد نضوجه عند أمرائهم بأدبه ورقيق شعره ماذا كان يضيره لو انتجع إلى قرطبة وحل بديوان الناصر نصير الأدب وملتقى العلماء الأعلام فغناه من أغاريده ونسج حوله من عسجده وشى مدائحه أما كان ذلك أبقى لأثره وأنبه لقدره وأشهى لبنى قومه أهل الأندلس ؟.

ولكنه الحب الصادق والتشيع الطاهر هو الذى تغلغل إلى قلبه وسما بنفسه كما فعل بقلب الكميت شاعر أهل البيت فى الصدر الأول وكما فعل بعمارة اليمنى فى مأتم تلك الدولة، وما كان عمارة متشيعا كابن هانئ بل كان دنفا بحبهم صداحا بمدائحهم حتى لقى ربه مصلوبا فوق أنقاضهم معفرا بدمائهم يشدو برثائهم شدوا دونه رثاء الأندلس البائد .

وعرف أهل اشبيلية تشيع ابن هانئ وسقط إليهم بعض أشعاره فثاروا عليه وتحفزوا لقتله وعجز صاحب اشبيلية عن حمايته، فقد تناوله الناس بألسنتهم كما فعلوا بابن هانئ فأشار عليه الأمير بالهجرة من المدينة فتجهز للرحلة إلى إفريقية .

وكان المغرب بأسره أتونا من نار يرهج بالحديد، والحروب تتناوله من أطرافه وكره أهل الأندلس أن يفر ابن هانئ بكنزه الثمين من معين أدبهم إلى العدوة الأخرى فأقاموا فى طريقه العقبات ولكنه أفلت من أيديهم بشق الأنفس وقد أشار إلى هول ما لاقى منهم فى بعض شعره حين قال :

ولو علقته من أميـــة أحبل لَجُبَّ سنام من بنى الشعر تامك
ولما التقت أسيافهـــا ورماحها شراعا وقد سُدت على المسالك
أجزت عليهـا عابرا وتركتها كأن المنايا تحت جنبى أرائك
وما نقموا إلا قديم تشيعى فنجى هزبرا شـــده المتدارك

ولقد أثنى عليه المستشرق الألمـانى فان كريمر وترجم بعض أشعاره إلى الألمانية وقال إن فيه قوة بيان ورقة فى الأسلوب والألفاظ لا يجاريه فيها إلا القليل من المحسنين ولذلك يدعوه المغاربة متنبى المغرب ، وديوانه أهم ديوان لدينا لأنه وسيلة للاطلاع على عقائد الخلفاء الفاطميين ومقاصدهم .

وود ابن هانئ لو نال بغيته من الدخول على المعز ولـكن كان دون ذلك أهوال لأنه كان قادماً من عدوة الأندلس وأبواب المعز دونهـا القواد وملوك البربر وأشراف الشيعة .

وكان بالمغرب أمير يرجع آباؤه إلى الأندلس اسمه على بن حمود كان قدم على عبيد الله المهدى رأس البيت الفاطمى قبل أن تظهر دعوته بافريقية فلما حضر إلى المغرب ثم اعتقل بمدينة سجلماسة أقام ابن حمدون إلى جانبه يرعاه حتى خرج من السجن فلما بايعه الناس بالامامة قرب إليه ابن حمدون ثم جاء القائم الفاطمى ولد المهدى فاختط مدينة المسيلة وجعلها قاعدة لوادى الزاب وأنزل بهـا عليا بن حمدون وألحق ولديه جعفرا ويحيي ببلاط ولْده المنصور والد المعز .

وجاء المعز فأقام جعفر بن على أميرا على وادى الزاب يسكن المسيلة ومعه أخوه يحيى بن على وزيرا له، وحكمه فى رقاب قبيلة زناته التى تمقته وكان جعفر سمحا سخيا كثير العطاء يؤثر العلماء والشعراء فلحق به ابن هانئ من أول دخوله إلى المغرب ومما قال فيه :

ألا أيها الوادى المقدس بالطوى ... وأهل الندى قلبى إليك مشوق

ويا أيها القصر المنيف قبابه ... على الزاب لا يُسْدَد إليك طريق

ويا ملك الزاب الرفيع عماده ... بقيت لجمع المجد وهى فريق

فما أنس لا أنسى الأمير إذا بدا ... يروع بمجرىً ملكه ويروق

ولا الجود يجرى من صفيحة وجهه ... إذا كان من ذاك الجبين شروق

وأثنى على كرمه فقال :

عذلوه فى بذل التلاد وإنما ... عذلوه أن يدعى الغمام الصيبا

نفس ترق تأدبا وحجى يضى ... ء تلهبا ويد تذوب تسربا

فيزيدها درّ السماح تخرقا ... ويزيدها بسط البنان ترحبا

ثم أثنى على شجاعته فقال :

إذا كان هذا العفو من عزماته ... فنى أى خطب الدهر يستغرق الجهد

إذا كان تدبير الخلائق كلها ... له لعبا فانظر لمن يذخر الجد

فما ظنكم لو كان جرد سيفه ... إذا كان هذا بعض ما فعل الغمد

ولابن هانئ من شعره الجزل مختارات قالها فى جعفر بن على لا يتسع لها كتاب أفردناه للمعز .

وما كاد ابن هانئ يضع قدمه بافريقية حتى انهال عليه خصومه الشعراء يهجونه بالقدح الموجع فلما بلغه ذلك قال لا أجيب منهم أحدا حتى يهجونى على التونسى فانى أجيبه، فلما بلغ قوله عليا قال :

أما إنى لو كنت ألأم الناس ماهجوته بعد أن شرفنى على أصحابى وجعلنى من بينهم كفؤا له .

وحمل خبره إلى المعز فاستدعاه وقربه واختص به، ونال ابن هانئ ما كان يرجوه من دنياه، فدخل على المعز وقد عقد الديوان للتهنئة بأعظم فتح ناله المعز على عدوه الناصر، واستمع إليه بين ملوك البربر وأمراء المغرب، وكانت من أجل ما نمق الشاعر الكبير وقد بلغت مائتى بيت فلنكتف بالقليل من كثيرها الممتع .

إذا كان من أيامه لك شافع … إلى أمل فاخصم به الدهر واقصم

إذا أنت لم تعدم رضاه الذى به … يفوز بنو الدنيا فلست بمعدم

وأنت بدأت الصفح عن كل مذنب … وأنت سننت العفو عن كل مجرم

ولا عجب إن كنت خير متوج … لجدك فى البطحاء خير معمم

وأشهد أن الدين أنت مناره … وعروته الوثقى التى لم تفصم

تقودهم فى الجيش والجيش مَنْسَك … وكل حجيج من مُحِل ومُحرم

كما سار فى الأنصار جدك من منى — وقاد الحواريين عيسى بن مريم
ولا عذب الماء القراح لشارب — وفى الأرض مروانيـة غير أيّم
ألا إن يوما هاشميا أظلهم — يطير فراش الهام عن كل مجثم
ألا إن وترا فيهمُ غير ضائع — وطلاب وتر منكمو غير نُوَّم
فتمشون فى وَشى الدروع سوابغا — ويمشون فى وشى البرود المنمنم
با سياف ذاك البغى أول سَلّها — أصيب علىّ لا بسيف ابن مُلْجم
وبالثأر من بدر أريقت دماؤكم — وقيـد إليكم كل أجردَ صلدِم
إذا ما بناء شاده الله وحده — تهدمت الدنيـا ولم يتهدم

فمن غير ابن هانىء يبسط أيام المعز ووقائعه وقد ظلمـه المؤرخون وتجاهلوا دنياه الخالدة، ومن غير المعز يرفع قدر شاعره الذى خلقه الله ليتم به مجده ويرفع مناره فقد تواتر النصر على راياته فدحر الروم فى صقليه ونال من أسطولهم أعظم الفتوح فوقف ابن هانىء بين يديه يصف سفن الحرب فقال بلسان من يصف قذائف الحروب الحديثة :

إذا زفرت غيظا ترامت بمارج — كما شب من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق — وأفواههن الزافرات حديد

وكل القصائد مطولات يضيق النطاق عنها .

ويحدثنا ابن هانىء عن علو منزلته عند المعز وقصور أنداده من الشعراء عن اللحاق به فيقول :

فما تـكامل من قبلى لمرتقب إذنا ولا لخطيب ما تـكامل لى

وتوالت عليه أيادى المعز حتى لقد أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار فقال له يا أمير المؤمنين ما لى موضع يسع الدست إذا بسط فبنى له قصرا أنفق على بنائه ستة آلاف دينار وحمل إليه فراشا يشاكل الدست والقصر بثلاثة آلاف دينار وهذا ما لم ينله شاعر قبله ولا بعده .

لقد كان شهاب الدين المقدسى صاحب كتاب (الروضتين فى أخبـار الدولتين) مؤرخا عصر صـلاح الدين الأيوبى فنسج من أدبه وأسلوب يراعته حول غزواته ووقائعه وأيامه الغر وأخرجها للناس فياضة النضرة مصقولة التصوير مفصلة الاحداث .

وقد كان ابن هانئ مؤرخ المعز على أسلوب أدبه وفيوض أغاريده يصور مغانيه والغرر المحببة من حكمه وهى التى ضن بها الموتورون من الفاطميين من نقلة الأخبار الذين لا ذمة لهم ولا أمانة فيهم .

فهو مرآة وقائع ذلك الملك العظيم مع بنى أمية ومصور أحداثه ومفاخر بنى هاشم وهو درع يتقى بصدره مطـاعن خصومهم لم يبق لقـائل حرفا إلا ألقمه فأفحمه .

وابن هانئ بديوانه الزاخر بالحوادث الفياض بالأخبـار من الدلائل الناصعة والحجج الدامغة ، على أن دعوى النسب لم تخلق إلا فى أول القرن الخامس ولو نجم بها فرد واحد أيام المعز أو أحد من آبائه لشاعت بين الناس

وكان ابن هانئ أول من دفعها وفند إفكها ، كما تبسط فى كل خلاف بين أمية وهاشم وكما تصدّى للشانئين من بنى العباس

وقد اقتبسنا الكثير من قصائده العامرة التى ألقاها بين يدى المعز فى سائر فتوحه وألحقناها بالموضع الذى قيلت فيه

ولم ينس المعز حسن بديهته يوم أُهدِى إليه سيف جده علىّ بن أبى طالب ذو الفقار فوصفه وصفاً خالداً حين قال :

سماه جدك ذا الفقار وإنما سماه من عاديت عزرائيل

وكأن به لم يُبق وتراً ضائعاً فى كربلاء ولا دماً مطلولا

فشاع بين الناس سيف المعز كما ذاع ذهبه

ولعل ابن هانئ كان فى خلقه نزعة المخاطر فيغشى البيوت ويطرق أهلها ليلاً كما كان يفعل الملك الضليل، وقد ذكر ذلك فى إحدى قصائده فقال :

طرقت فتاة الحى إذ نام أهلها

وقد قام ليل العاشقين على قدم

فقالت أحقاً كلما جئت طارقاً

هتكت حجاب المجد عن ظبية الحرم

أنازعها باللحظ سراً كأنما

تعلم منها اللحظ ما نسى القلم

وقد أحكم الغيران فى سوء ظنه

فما شك فى قتلى وإن كان قد حَلُمُ

يطيف بأطنــاب القباب مُسهداً

فينشق ريح الليث والليث فى الأَجَم

فبادرت سيفى حين بادر سيفه

فثار إلى ماضٍ وثرت إلى خَذِمِ

سيف المعز

لقد كان عبد الرحمن الناصر خليفة الأمويين بالأندلس معاصراً الآباء المعز من لدن جده الأعلى عبيد الله المهدى ، فقد حكم الأندلس خمسين عاما من أول القرن الرابع الى منتصفه وامتدت أيامه لبضع سنوات من عصر المعز بالمغرب

وكان الناصر ملكاً جليلا عظيم القدر أخضع ثوار الأندلس لأول حكمه ثم أخاف الافرنج بحسن بلائه فيهم حتى مدت إليه ام النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان وأوفدوا إليه رسلهم وهداياهم من روما والقسطنطينية

وكان آباؤه قانعين بالأندلس و بأسباب التجارة مع سواحل المغرب فأقام طائفة من تجارهم بشاطئ المغرب مدينة وهران عام ٢٩٠ ومنها تفشت دعوة الأموية .

ولكن الناصر لم يقنع بما فتح الله عليه من بلاد الأندلس المجاورة ، بل سمت نفسه الى المغرب

فلما رأى إدبار دولة الأدارسة أنفذ جيشاً فاحتل ثغر سبتة وهى عدوة المغرب المواجهة لأقرب ثغور الأندلس

وخاطب أكبر زعماء المغرب الأقصى وسيد قبائل مكناسة موسى بن أبى العافية بأن يدعو له ببلاده وما جاورها ووعده الجزاء الأوفى فاستجاب له وكان موسى والياً على المغرب الأقصى من قبل الفاطميين فنقض طاعتهم وخطب للناصر على منابره

فحاربه عبيد الله المهدى وهزمه قائده حميد عام ٣٢١ هـ وانتزع من يده مدينة فاس وأقام بها دعوة المهدى

ومات المهدى عام ٣٢٢ هـ فثار رجل من شيعة الأمويين يدعى أحمد بن بكر الجذامى وعدى على حاكم مدينة فاس الفاطمى فقتله وأنفذ رأسه الى الناصر بالأندلس واستباح المغرب واسترد الدعوة للأمويين

وجاء القائم الفاطمى بن المهدى الى الخلافة فأنفذ الى المغرب جيشاً مع قائد اسمه ميسور عام ٣٢٣ ففتح مدينة فاس واعتقل أحمد بن بكر وأرسله الى سجن المهدية فظل بها الى أول حكم المعز وهزم القائد ميسور موسى بن أبى العافية أكبر دعاة الأمويين وأعانه عليه فلول أمراء الأدارسة الذين تفرقوا بالمغرب بعد انقراض دولتهم فقاموا بدعوة بنى عمهم الفاطميين من جديد وحكموا المغرب باسمهم ولحق بعضهم بفلول الأدارسة الذين تفرقت لهم إمارات

صغيرة بريف المغرب وحول ثغر سبتة فصاروا يدعون لكل عاهل يحكم ذلك الثغر من الفاطميين أو الأمويين

وجاء المعز إلى الخلافة أول العام من سنة ٣٤٢ هـ وجيوش الناصر وقواده تعبر من بر الأندلس إلى سبته يقاتلون البربر ويتألفونهم حتى ملكوا أكثر بلاد المغرب .

وبايع الناصر قبائل زناتة وخطبوا له على المنابر من حاضرتهم تاهرت إلى طنجة وفاس فولى عليهم أعظم ملوكهم محمد بن الخير المغراوى وكان يتعصب للأمويين لأن جده قدم أول أيام الفتح الإسلامى على عثمان بن عفان رضى الله عنه وأسلم على يديه وبسبب ذلك كانت قبائل زناته بأسرها ألبا واحدا مع الأمويين كما كانت قبائل صنهاجة المنافسة لها والمتاخمة لحدودها من الشمال ألبا واحدا مع الفاطميين .

فخرج المعز فى أول أيامه على رأس جيش كثيف يطوف بلاد إفريقية والمغرب ليمهد قواعدها ويعزز أسبابها فاقتحم جبل أوراس على القبائل الثائرة عليه وهى بطون زناتة وهواره وكلتاهما تدين بالمذهب الاباضى وتؤثر الناصر الأموى فتدعو له كما كانت تمقت الشيعة .

وكان لتلك القبائل رئيسان متنافسان لاتنقطع من بينهما الفتن والحروب وهما محمد بن خزر ويعلى بن محمد .

وما غاب عن دهاء المعز ما بين الرجلين من لدد وعداء .

فاستدنى منه يعلى بن محمد وقربه وعقد له الولاية على مدينة تاهرت وسائر بلاد المغرب الأوسط ليكيد منافسه محمد بن خزر فاقتحم يعلى بن محمد بلاد ابن خزر ودوخها ودمر حاضرته وهران

واختار المعز لاقليم الزاب وهو عش زناته رجلا من أوليائه وهو جعفر بن على الأندلسى وجعل مقره مدينة المسيلة ليشرف على قبائل زناته ويمنع صمام ثورتها من الانفجار .

وكان يتاخم جعفر بن على من الشمال قبائل صنهاجة وملكها زيرى ابن مناد وكان هـذا ألد خصوم زناته فـكان تطويق تلك القبائل الباغية عملا حازما من أعمال المعز .

وأراد المعز أن يسدى لزناته يدا فأطلق من سجن المهدية أحمـد بن بكر الجذامى الذى كان بالسجن من أيام جده وأحسن إليه وولاه على مدينة فاس وكان ابن عمه محمد بن الخير قد فر إلى غرناطة ليـكون فى ركاب الناصر .

واختار المعز من أوليائه الحازمين خادمه القائد قيصر الصقلى فندبه ليحكم مدينة باغايه وهى مفتاح جبل أوراس و بيد حا كمها سائر الدروب المشرفة على الجبـل فمنع تسرب القبائل المتمردة ونجحت سياسة التفريق التى بسطها المعز على المتنافسـين من ملوك البربر فان الطاغية محمـد بن خزر قدم عليـه خاضعا ملبيا دعوته وترامى على أقدامه لينصره على عدوه يعلى بن محمد وأعلنت قبائل هواره خضوعها وولاءها بعد خضوع سيدها ابن خزر .

فحمد المعز ربه الذى أدان له أكبر النافرين من العصاة ولو إلى حين وجاء دور أوليائه المخلصين فاستقدم فى الأول زيرى بن مناد سيد قبائل صنهاجة وأراد أن يجزيه على إخلاصه وحسن بلائه مع جده القائم وعونه الأكبر على الثائر أبى يزيد فخلع عليه و بسط يده بالعطاء و بشره بالسيادة على قبائل زناته لأنه يتوقع جنوحهم إلى العصيان كسابق عهدهم .

وعطف المعز آخر الأمر على أكثر أهل المغرب ولاء له ووفاء لآبائه وهم قبائل كتامة فاختار من أمرائهم ولاة لإقليم برقة وطرابلس وجزيرة صقلية وإقليم جنوه وسائر قواد الأسطول كما اختار من بين شيوخهم وعلمائهم أركان مجلس دولته ودعاته .

وشمر عن ساعده بعد ذلك وعقد عزيمته على الثأر من عدوه الناصر الأموى وحز فى نفسه أن يرى لذلك العدو كلمته العليا بريف المغرب وسواحل بحر الروم .

وتجهز ليصارع أمية كما صارعهم أبوه فى بدر وفى صفين فبدأ بغزو الأندلس لينال منه بعض ما فعل بآبائه فأمر الحسين ابن على عامله على صقلية أن يخرج بالأسطول فيغزو شواطئ الأندلس وكان ثغر المرية بالشاطئ الجنوبى الشرقى للأندلس يرابط به أسطول الناصر ويقوده أشجع قواد الأندلس غالب وهو رجل الوقائع والحروب الذى أرهب الإفرنج وبطش بهم فى البر والبحر حتى انجابوا عن الجانب الغربى من بحر الروم وخلفوه لسلطان

الأمويين والفاطميين واقتحم الحسين بن على ثغر المرية وعاث فى بلاد الأندلس ثم عاد غانما وكان ذلك عام ٣٤٤ هـ .

وما كان الناصر لينام عن ثأره فأنفذ غالبا على رأس أسطول فيه مائتا سفينة فحاول أن يغزو ثغور المغرب و إفريقية فلم يبلغ منها غرضا لمناعتها و يقظة حماتها فكان أول فتح ناله المعز من عدوه الناصر .

ولكن الناصر لا يرضى لنفسه الهزيمة فعاد يغزو المغرب بعد عام واقتحم أسطوله ثغر سوسه بافريقية وعاث فى بلادها واشتفى للهزيمة السابقة ثم أغزى جيوشه ثغر سبتة وسائر بلاد العدوة فكتب له أحمد بن بكر أنه مقيم على ولائه وقد خطب له على منابر فاس وأنه نقض عهد الفاطميين وخرج عن طاعة المعز الذى أحسن إليه وأخرجه من السجن .

وذهب إلى غرناطة سائر ملوك البربر و بايعوا الناصر و بينهم يعلى بن محمد الذى ولاه المعز مدينة تاهرت ليكيد به ابن خزر ففرح به الناصر وولاه على طنجة .

وأصبح الناصر متحكما فى شواطئ المغرب وحواضره واستجاب له قبائل زناتة وسائر البربر ولم يبق مواليا للمعز إلا كتامة وصنهاجة

واستبان المعز حرج الموقف ومكيدة الناصر التى يرمى بها إلى إذلاله كما فعل بآبائه من قبل .

وكان المعز يعتد بأحسن القواد من الصقليين ومن كتامه وكان من

أعظمهم جوهر وقيصر وسعادة وريدان وجعفر بن فلاح فجهز الجيش أحسن جهاز وعقد الألوية ثم أمر عليهم جوهرا .

وكانوا عشرين ألف فارس وتحركت لنصرته صنهاجة بأسرها وعلى راياتها ملكها زيرى بن مناد .

وتحرك الجميع من القيروان عام ٣٤٧ هـ .

ونقل الخبر إلى يعلى بن محمد صاحب طنجة وخليفة الناصر على بلاد العدوة فحشد قبائل زناته وكان اللقاء على مدينة تاهرت .

وكانت سياسة المعز إذا نشبت الحرب أن يبذل المال ولا يضن بكثرته تشجيعا للقبائل على القتال فزود جوهرا باحمال الذهب ووصاه بنثرها بين القبائل فضمن له القواد قتل يعلى بن محمد وشددوا عليه فقتلوه وحملت رأسه إلى المعز وطيف بها القيروان .

وطار جوهر إلى مدينة سجلماسة وهى أقصى مدن المغرب فقاتل عليها ابن مدرار وحمله أسيرا وكان مع ابن مدرار جيش كثيف من الاباضية أفناه جوهر .

وعاد الجيش إلى مدينة فاس عام ٣٤٩ هـ فحاصرها وتسنم أسوارها ليلا زيرى بن مناد وفتحها الجيش عنوة وأسروا أحمد بن بكر .

وانطلق جوهر فى بلاد المغرب يقتل أولياء الأمويين ويفتح البلاد والمعاقل فخافه البربر وفروا أمام جيوشه وتوارى دعاة الأمويين .

وقضى جوهر فى حربهم ثلاثين شهرا حتى انتهى إلى شاطىء المحيط فرأى أن يخلد ذلك الفتح العظيم بعمل من أعمال بطولته فجمع له من سمك المحيط فى جرار كبيرة ملئت ماء ثم حمله معه مئات الأميال بين جبال المغرب وهضابه وسهوله وأوعاره حتى وضعه بين يدى المعز .

ودخل المهدية ومعه أحمد بن بكر وابن مدرار فى الأقفاص على ظهور الجمال فسجنا بالمهدية .

وبالغ المعز فى إكرام زيرى بن مناد وأضاف إلى ملكه مدينة تاهرت وحكمه فى رقاب زناتة بأسرها .

وختمت أيام الناصر الطويلة بهزيمة نكراء من سيف المعز وخروج سلطانه من المغرب فلم يبق له إلا ثغر سبتة .

وفى عام ٣٥٠ هـ مات الناصر كأعظم ملوك الإسلام جاها وعزا وسلطانا فما كان من بنى أمية من بلغ شأوه أو سما إلى منزلته وقد امتدت أيامه الطويلة فتشابكت احداث البلادين وتولدت من عناصرهما عبقرية المعز ودهاؤه وحزمه وشجاعته .

وأراد المعز أن يرفع ذكر قائده جوهرا فأمر شاعره الكبير ابن هانئ أن يثنى عليه بحضرته ثناء يبقى أثره على الأيام فقال :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكرا ⁂ وأورد عن رأى الإمام وأصدرا

هدية من أعطى النصيحة حقها ⁂ وكان بما لم يبصر الناس أبصرا

ألا هكذا فلتجلب العيس بُدّنا ... ألا هكذا فلتجلب الخيل ضمرا

يُمَشّين مشى الغانيات تهاديا ... عليهن زى الغانيـــات مشهرا

ألا إنمـا تهدى إلى خير هاشم ... وأفضل من يعلو جوادا ومنبرا

وأهل بان تهدى إليه فإنه ... كَسَاهَا وسمّاها وحلّى وسورا

وأسكنها أعلى القباب مقاصرا ... وأحسنها عاجا وساجا ومرمرا

وبوأها من أطيب الأرض جنة ... وأجرى لها من أعذب الماء كوثرا

ألا إنمـا كانت طلائع جوهر ... ببعض الهدايا كالعجالة للقِرى

لعمرى لئن زان الخلافة ناطقا ... لقد زان أيام الحروب مُدَبِّرا

وصرّف منه الملك ما شاء صارما ... وسهما وخِطّيا ودِرعا ومِغفرا

مُعِزُّ المَشرِقين

ما طاب للمعز ولا لأحد من آبائه عيش بالمغرب لأنها كانت موطن الفتن ومهد الحروب وأهلها جفاة الأخلاق غلاظ الأكباد لا يصبرون على حال واحد من الاستقرار ولا يملون مد الأعناق الى بلاد الأندلس وملوكه

ولقد قضى غالب أيامه كما قضى آباؤه نيفاً وستين عاماً في تلك البلاد الجبلية في حروب مستعرة وقتال لا هوادة فيه ولا رحمة، تتخطفهم القبائل من بين أيديهم ومن خلفهم ويفترص عدوهم الأموى كل سانحة للبطش بهم وإيقاد الثورات والمعاثر لهم

فأى ملك هذا الذى استنفد نشاط الرجال وجلدهم ، وأى عظيم فى منزلة المعز وهمته وذكائه يرضى من الحياة بأية حال من حالات البقاء ، وهو الذى خلق دائب التفكير فى مصيره ومصير الفواطم من بعده

لقد كان يمنّى نفسه بأحسن بلاد الله مناخاً ونعمة موطأة بين قوم أهل طاعة وسلام ونظام وخلود الى العمل المنتج ، وكانت تلك البلاد على أبوابه

تلوح له وتناديه وتستنصره ليدفع عنها الفوضى والجوع والقحط وقلة الأنصار ويرد عنها عادية القرامطة النازلين شمالها بأبواب سوريا

تلك أرض الكنانة وجنة الدنيا ولقد كانت أجمل أمانى المعز أن يكون له بضفاف نيلها عيش رغد وصفو دائم وملك لا يبلى

ورأى بثاقب رأيه ألا يدخلها بعنف الفاتحين فيروع أهلها ويبغضهم فى دولته .

لقد كان الإخشيد جاره طول أيامه سيداً على مصر يذود عنها الردى ، وقد حاول جده القائم الفاطمى أن يسبر غوره فاقتحم الاسكندرية بجيشه عام ٣٣٠ ولكن الإخشيد وقف له ورد عاديته. ومات الرجل وجاء من بعده ذرية ضعاف آل أمرهم الى خادم أبيهم كافور فأحسن القيام على الملك واستدنى أهل الكفاية ولكنه كان بغير عقب يرث ملكه وما كانت أيامه لتطول وليس فى بنى الإخشيد كفؤ للملك

فسرح المعز خاصة رجاله يبثون دعوته بين المصريين ويبشرون بإمامته ويعدون الناس الرخاء والنعمة وإقبال الدولة

ونفذت دعوته الى الأمراء جميعاً من أتباع الإخشيد وأتباع كافور وإلى سائر أولياء مصر وكتابها وذوى الشأن والخطر ، وكانت قد توالت على مصر ألوان من المحن والفقر ونزل بالناس قحط جارف لأن النيل تهاوى إلى أسوأ

أيام الشرق فاشتد الغلاء وعزّت الأقوات ثم كملت بحلول الطاعون فيهم فكثر الموت حتى عجز الناس عن تكفين موتاهم

واستهان ملك النوبة بحكومة البلاد ولضعف أهلها فدخل مدينة اسوان واندفع منها الى بلاد الصعيد فلم يجد من يصده عنها حتى بلغ مدينة اخميم فقتل الناس ونهب الأرزاق وأحرق الضياع وكان ذلك عام ٣٥٣

فلما بلغ الحرج والضيق والكرب من أهل مصر كل مبلغ دخلت إليهم دعوة المعز تمشى بالبشرى إلى الأفئدة فاستجاب لها الجميع حتى كافور نفسه

وسرح المعز والدته تحج البيت الحرام لتلمس عن قرب أحوال مصر فى سفرها وأوصاها أن تكتم عن الناس نسبها ولكن النذر قد سبقوها فخرج لها الناس وعلى رأسهم كافور فخدمها وحمل لها الهدايا ووطأ لها المركب وبعث جنوده فى ركابها فعادت إلى المغرب تثنى على كافور وأهل البلاد

ومات كافور فى ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ فخرج جنوده وغلمانه يوم موته فخربوا بستانه ومنظرته ونهبوا دوابه وما كان فى البلاد رجل حازم يدفعهم أو يسوسهم

وعمد أهل الرأى من الناس الى غلام صغير من أحفاد الاخشيد فولوه على مصر على أن يكفله ابن عم أبيه الحسن بن عبد الله بن الاخشيد ويسوس الدولة الوزير جعفر بن الفرات

فكثرت الفتوق وقلّت نفقة الجند وكان الوزير سيء الأثر فى الناس فصادر أموال الكثيرين منهم حتى فروا من وجهه

تلك كانت حال مصر حين فكر المعز فى فتحها وهجرة بلاد المغرب من أجلها . أما سائر بلاد الشرق فكانت نهباً بين الأتراك والأكراد والعرب

فكان العراق وفارس من نصيب أمراء الترك ومقرهم بغداد ، واقتسم ملوك بنى حمدان ديار ربيعة والموصل وسائر الثغور بين ملكين عظيمين من ملوكهم فكانت الموصل وما ولاها لناصر الدولة ، كما كانت حلب وسائر الثغور لأخيه سيف الدولة وكلاهما عاصر المعز والإخشيد

ولقد كانوا خير ما أنجبه القرن الرابع لبلاد الشرق الاسلامى حزماً ودهاء وحسن سياسة . فمن أين للشرق ند لسيف الدولة ممدوح المتنبى الذى قضى أربعاً وعشرين عاماً وهو يقاتل الروم ويغزو بلادهم ، أو ند لأخيه ناصر الدولة الذى صبر لحروب أمراء الترك والديلم ، أو نظير للاخشيد الذى شاد بمصر وسوريا ملكا راسخ الأركان

وتعاقبت الأحداث إلى المصير المحتوم فحكم بغداد توران التركى وكان عسوفا ظالما فر من وجهه المتقى العباسى مستجيرا بملوك بنى حمدان فلما لم يسعفوه لجأ إلى الاخشيد فنصحه بهجرة بغداد إذ لا عيش له مع توران ولكن المتقى أحسن بالأيام ظنه فعاد إلى مقر خلافته بغداد فسمل عينيه توران وجاء

بخليفة جديد ودخل أمراء الديلم بغداد فاتحين وخلعوا الخليفة العباسى وبايعوا للمطيع عام ٣٣٤ هـ .

وتواترت الحروب بين بنى بويه وبنى حمدان حتى خربت البلاد وتعطلت السبل .

ومات الاخشيد عام ٣٣٥ هـ وبعد عشرين عاما مات سيف الدولة وكان آخر حماة الاسلام بالشرق فطمع الروم فى بلاد الشام ففتحوا حلب ودمشق وعاثوا فى أرض الجزيرة وليس فى طريقهم مدافع حتى أوغلوا فى بلاد طرابلس وملكوا من السواحل ثمانية عشر بلدا وأسروا من عامة المسلمين نيفا ومائة ألف فكانت فاجعة لم ير الشرق لها نظيرا وكان ذلك عام ٣٥٨ هـ .

وهو العام الذى دخلت فيه جيوش المعز وادى النيل لتحريره من ذل الفقر والجدب والطواعين والفوضى ومن خوف الروم والقرامطة .

وكان المسلمون فى الصدر الأول للاسلام قد غلبوا على بحر الروم من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للأمم النصرانية قِبَلٌ بأساطيلهم بشىء من جوانبه وملك المسلمون سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فامتلك أهل الأندلس جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة كما امتلك بنو الأغلب ولاة افريقية باسم خلفاء العباسيين جزائر صقلية سنة ٢١٩ ثم سردانية وقوصره ومالطة واقريطش وقبرس ثم جاء الفاطميون أيام المهدى يغزون بأساطيلهم من

المهدية فانتزعوا صقلية لأنفسهم وجعلوا عليها واليا من قبيلة كتامه ثم فتحوا إقليم جنوه .

وكانت أساطيلهم تعبر البحر ذاهبة آيبة وجيوشهم تعبر مضيق مسينا إلى بر إيطاليـا فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن فى ممالـكهم فانحازت أمم النصرانيـة بأساطيلها إلى الجانب الشمالى الشرقى من شواطئ بحر الروم مما يلى بلاد اليونان وجزرها لا يبارحونها وأساطيل الفاطميين والأمويين تمعن فيهم وتتعقبهم وقد ملأت فسيح بحر الروم بسفنها الحربية والتجارية .

وكانت أشد الاحداث فى الجانب الأوسط والغربى من بحر الروم حيث مقر الدولتين العظيمتين الأموية والفاطمية، وكان أسطول الأمويين أيام الناصر وولده المستنصر قد بلغ إلى مائتى مركب وكذلك كان أسطول الفـاطميين يرابط بعضه فى ثغور صقلية ومنها تقوم الغزوات على شواطئ إيطاليا .

وكان ملك القسطنطينية فى أول النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى من غير بيت الملك ولـكنه كان جبارا شـديد البأس قاتل أمراء المسلمين المتاخمين لبلاده وضايقهم وحارب سيف الدولة ابن حمدان أشد قتال فـكانت الحرب بينهما سجالا ثم اندفع ملك الروم يفتتح بلاد الاسلام وثغوره فلما مات سيف الدولة لم يجسر أحد من ملوك الاسلام بالشرق أن يقف فى وجهه .

وكان المعز لذلك العهد قد طهر المغرب من دعاة الأمويين ونال عليهم نصرا حاسما بلغت شهرته بلاد المشرق .

وعز على المسلمين فى كل مكان أن يحل بالشرق ذلك البلاء وتحدث به أهل المغرب وذكروا سيف الدولة وتشيعه للفاطميين ودعاءه لهم على منابر حلب وغيرها من البلاد التى أخضعها وساءهم ما حل ببلاده من عادية الروم فدفعوا شاعر المعز يلوح بتلك الاحداث بين يديه ليثير حميته ويحفزه للحرب على الروم فوقف ابن هانئ بين يدى المعز وأنشده من غرره واعجاز أدبه ما اخترنا بعضه فقال :

فكأنما وقع الصريخ إليهما ... بحصار انطاكية فاستُرجِفَا
ثغر أضاع حريمَه أربابُه ... حتى أهين عزيزه فاستُضعِفا
ما لى رأيت الدين قل نصيره ... بالمشرقين وذل حتى خوفا
أسفى على الاحرار قل حفاظهم ... ان كان يغنى الحر أن يتأسفا
هلا استعان بآل بيت محمد ... من لم يجد للذل عنكم مَصْرِفا
فمدينة من بعد أخرى تُستَبى ... وطريقة من بعد أخرى تقتفى
حتى لقد رجفت ديار ربيعة ... وتزلزلت أرض العراق تخوفا
والشام قد أودى وأودى أهله ... إلا قليلا والحجاز على شفا
أيسر قوما أن مكة غودرت ... بعجر جيش الروم قاعا صفصفا
هذا المعز بن النبى المصطفى ... سيذب عن حرم النبى المصطفى
فى صدر هذا العام لا يلوى على ... أحد تلفت خلفه وتوقفا

فنفذت كلمات ابن هانئ إلى فؤاد المعز وعقد عزيمته على مجاهدة الروم والبطش بهم .

وكانت جزيرة صقلية لا يزال فيها بقية من ثغور قليلة فى حكم ملوك الافرنج فأمر المعز قائده أحمد بن الحسن بأن يغزو ثغر رمطه ومقاتلة من فيه من الأفرنج فحاصر القائد ذلك الثغر وقاتل أهله أشد قتال فاستغاثوا بملك القسطنطينية فأمدهم بأربعين ألفا فنزلوا ثغر مسينا وزحفوا إلى المسلمين وكان قائدهم اسمه منويل فقاتلهم المسلمون وقتلوا منويل وهزموا الروم وفتحوا مدينة رمطة عنوه .

فأرسل ملك الروم أسطولا عظيما عونا لأهل صقلية فقاتلهم الفاطميون ودمروا أسطولهم وأسروا عظماءهم وكانت واقعة المجاز الشهيرة عام ٣٥٤ هـ وبها انفرد الفاطميون بالسيادة على بحر الروم وانتزعوا من الروم أعظم نصر كان دونه النصر الذى أحرزوه على بلاد الشرق الاسلامى .

وأقبل ملوك المغرب وسائر أمرائه على المعز يهنئونه بالنصر ونهض بينهم شاعره ابن هانئ فقال :

فى الله تصديق ما فى النفس من أمل	وفى المعز مقر البأس والجود
ما أجزل الله ذخرى قبل رؤيته	ولا انتفعت بإيمان وتوحيد
لله من سبب بالله متصل	وظل عدل على الآفاق ممدود
قد حاكمته ملوك الروم فى لجب	وكان لله حكم غير مردود

قضيت نحب العوالى من بطارقهم ... وللدماسق يوم جـد مشهود
لو يعلموا أن ذاك العزم منصلت ... وان تلك المنـايا بالمراصيد
لو كان بالروم علـم بالذى لقيت ... ما هنئت أم بطريق بمولود
أرض أقمت رنينا فى مآتمها ... يغنى الحمائم عن سجع وتغريد
قد كانت الروم محذورا كتائبها ... تدنى البلاد على شحط وتبعيد

واستراح المعز من حروب الأندلس والروم فجلس بالقصر فى يوم شات بحاضرة أبيه مدينـة المنصورية وقد ملئت يداه بالرسائل من دعاته بمصر يستحثونه على فتحها فاستدعى عدة من شيوخ كتامة فدخلوا عليه فى مجلس قد فرش باللبود وكان حوله كساء وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب فقال لهم يا إخواننا لقد أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأم الأمراء وإنها الآن بحيث تسمع كلامى أترى إخواننا يظنون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والسمور والخز والقباء كما يفعل أرباب الدنيا ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضرتكم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم، وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا بما لا بد لى منه من دنياكم وبما خصنى الله به من إمامتكم، وإنى مشغول بكتب ترد علىّ من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى وإنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم، فافعلوا ياشيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعل ولا تظهروا

التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل إلىّ كتحنني عليكم ليتصل فى الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل واقبلوا بعدها على نسائكم والزموا الزوجة الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم فحسب الرجل الواحد الواحدة ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم اذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم ، انهضوا رحمكم الله ونصركم »

فأى بيان يرضى نهم الباحث فى حياة المعز أدعى للاعجاب والتقدير من ذلك البيان الذى جمع بين حب التواضع والعزوف عن الترف والملاذ وبث الفضائل وإسداء المعروف ، وأى دستور لأسرة الرجل أبقى لسعادة الدنيا ونعمة العيش مما حث عليه المعز فى بيانه

لقد رأى بعينه رؤساء العشائر يجمعون الحظايا والجوارى كما كان يفعل بلكين بن زيرى الصنهاجى الذى كان فى قصره أربعمائة حظية وقد جاءته البشائر فى يوم واحد بولادة سبعة عشر ولداً .

وحكى خازن أموال المعز أبو جعفر حسين بن مهذب أن المعز استدعاه يوماً فدخل فوجده فى وسط القصر وقد جلس على صندوق وبين يديه ألوف

صناديق مبددة فقال له : هذه صناديق مال قد شذ عنى ترتيبها فانظرها ورتبها، قال فأخذت أجمعها الى أن صارت مرتبة و بين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراشين فأنفذت إليه أعلمه فأمر برفعها فى الخزائن على ترتيبها وأن يغلق عليها وتختم بخاتمه وقال: قد خرجت عن خاتمنا وصارت إليك، فكانت جملتها ٢٤ مليون دينار وهى ذهب المعز الذى ضرب بكثرته المثل ، جمعه ثم أنفقه بسخاء دونه سخاء حاتم على جنده الذين فتحوا مصر وعلى المصريين يوم الفتح و بعده. ولقد صب الباقى منها أكداساً كأحجار الرحى فحملها بين يديه الى مصر وصبها قوالب متراصة على أعمدة باب قصره فسمى من أجل ذلك باب الذهب ، وكان الناس فى آخر أيام الدولة الفاطمية يبردون الأعمدة بالمبارد فيأخذون منها الذهب

وأكثر المؤرخون من وضع القصص عن أحوال مصر وضعف رجالها ، يمهدون بذلك السبيل لغزوها ولكن البلاد كانت فى غنى عن تلك القصص الموضوعة فقد ساءت الأحوال بعد موت كافور و بادر بقية الناس من الأمراء والكتاب والقواد فكاتبوا المعز وسألوه أن يرسل الى مصر جيشاً مع بعض رجاله فيسلمونه زمام الأمر

واقتنع المعز بأن مصر قد نضجت وآن قطافها فجلس يعد لها الجيش والقائد الذى يكون على يديه الفتح

ذهب المعز

كان للمعز سياسة مبينة لم يشذ عنهـا فى سائر أعمال عرف بها ووصى بها عماله وقواده فانه لم يول أحدا من أخوته أو أبنائه أو بنى عمه عملا من أعمال الدولة ، بل كان يختار للقبائل أمراءها منها بعد التثبت من ولائهم لامامته والتفانى فى طاعته .

وقد عرف الناس تلك الخلة فيـه حين وصى يوسف بلـكين بن زيرى الذى استخلفه على بلاد المغرب فقال له ضمن وصاته :

« لا تول أحـدا من اخوتك و بنى عمك فانهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك » .

ولما عزم على فتح مصر كان نظره إلى قبيلة كتامة المخلصة على أن يكون منها كتلة الجيش وسواده ، ثم أدار بصره حوله لاختيـار القائد حتى استقر على جوهر .

وكان رجل الدولة الناشئ فى أحضانها المتقلب فى نعمتها المعروف بكفايته

وذكائه وحسن سياسته وشدة إخلاصه لإمامه، وقد أبلى فى الحرب التى شنها على أهل المغرب و بنى أمية وكان أنداده فيها قواد الأمويين وزعماء القبائل فبزهم بمهارته الحربية ودهائه و إقدامه ،وكان المعز وآباؤه من قبله قد دربوا صغار الغلمان من الصقالبة من أهل الذكاء وصلابة العود على فنون القتال فلما شبوا خرج من بينهم بعض القواد أمثال سعاده وريدان الذين حضروا فتح مصر وخلدوا أسماءهم على بعض أحياء مدينة القاهرة .

لقد كان فتح مصر أعظم الفتوح الفاطمى وأجلها و به زادت قوتهم وعظمت شوكتهم لأن الخلافة العباسية كما بينا كانت قد ضعفت عن القيام بسياسة بلادها، ففسدت الأحكام واختل النظام واستبد الوزراء والقوادوخلعوا طاعة الخلفاء واستقلوا بالبلاد فتشعبت الدولة شيئاًفشيئا إلى دول صغيرة، وتغلب عليها الأمراء من الفرس والترك والأكراد والعرب وغيرهم، واستولى القرامطة على سوريا وقسم من جزيرة العرب، والسامانيون على خراسان، والأمويون على الأندلس، والفاطميون على افريقية والمغرب، و بنو حمدان على ما بين النهرين وديار بكر، و بنو بويه على بلاد فارس .

وكانت مصر من أضعف بلاد الخلافة وأشدها اضطرابا، وكان الفاطميون من عهد دخولهم المغرب ساعين فى نشر دعوتهم بها فاستجاب لدعائهم خلق كثير حتى لقد دخل فى دعوتهم حاكم البلاد نفسه وهو كافور .

وكان آباء المعز قد حاولوا فتحها فدفعهم عنها يقظة حكامها وكثرة جندها

ثم مات كافور وكان قد استحكم بهـا الغلاء وشاعت الفتن وشغل عنها خليفة بغداد بما كان من الحروب بين بختيار بن معز الدولة وابن عمه غضد الدولة .

فاختار المعز جوهرا ليفتتح له مصر ويقيم له على ضفاف النيل مدنا تحكى بلاد الأندلس .

وأنفذ من خاصته رجـلا اسمه خفيف الصقلى إلى شيوخ كتامة برسالة أراد بها أن يمتحن شجاعتهم وأنفتهم، فقال لهم خفيف : إن أمير المؤمنين رأى أن ينفذ رجالا إلى بلدانـكم يقيمون بينـكم ويأخذون صدقاتـكم ومراعيكم ويحفظونها عليـكم فى بلادكم فاذا احتاج إليها أنفذ خلفها فاستعان بهـا على ما هو بسبيله .

فقال بعض شيوخهم لخفيف لمـا بلغه ذلك: قل لمولانا والله لا فعلنا ذلك أبدا كيف تؤدى كتامة الجزية ويصير عليها فى الديوان ضريبة وقد أعزها الله قديما بالإسلام وحديثا معكم بالإيمان وسيوفنا بطاعتـكم فى المشرق والمغرب .

فعاد خفيف إلى المعز بذلك فأمر بإحضار جماعة كتامة فدخلوا عليه وهو راكب فرسه فقال :

ما هذا الجواب الذى صدر عنـكم ..

فقالوا هـذا جواب جماعتنا ما كنا يا مولانا بالذى يؤدى جزية تبقى علينا .

فقام المعز فى ركابه وقال :

بارك الله فيكم ، هكذا أريد أن تكونوا وإنما أردت أن أختبركم فأنظر كيف أنتم بعدى .

وعبأ المعز جيشاً جرارا قوامه ثمانون ألف دارع وعلى رأسه جوهر، ووصى عمال برقة أن يكثروا من حفر الآبار فى طريق الجيش لأنها مفازة كأكبر العقبات فى طريق مصر، وهى أضعاف مفازة العراق إلى الشام لا يخاطر باقتحامها جيش كبير إلا إذا تحكم فى الشرب واطمأن إلى غزارة الماء التى يحملها، فقد كان الماء آفة الغزاة قديما وحديثا .

وما أخفق المهدى الفاطمى جد المعز فى غزو مصر أول القرن الرابع إلا بسبب الماء وقلة وسائل حمله، وتعذر حفر الآبار فى برقة التى ما كانت تدين له بولاء، ووثوب قبائل الأباضية الضاربين بجبال نفوسه بطرابلس وهم ألد أعدائه

وكان جوهر أيام الفتح فى الثامنة والخمسين وهى سن استكمال العقل ورسوخ القدم فقد ولد فى أول القرن الرابع .

وكان مع ما عرف به من حسن سياسته وحزمه كاتبا بليغ العبارة له توقيعات مستحسنة على الرقاع التى ترفع إلى بابه، فقد وقع على رقعة منها فقال :

سوء الاجترام أوقع بكم حلول الانتقام، وكفر الانعام أخرجكم من حفظ الذمام فالواجب فيكم ترك الإيجاب، واللازم لكم ملازمة الاحتساب، لأنكم بدأتم فأسأتم، وعدتم فتعديتم، فابتداؤكم ملوم، وعودكم مذموم .

وعاش جوهر حتى بلغ الثمانين فى دولة العزيز بن المعز .

وكان فتح مصر مظهراً رائعاً لأعظم خلال المعز سماحته وصلابته، فقدطلع على الناس بكل ماله الذى ادخره من لدن آبائه الأولين ومبلغه أربعة وعشرون مليوناً من الدنانير ألقاها بين يدى جوهر ليضعها حيث شاء

وما بكثير على المعز أن ينال مصر بتلك الصفقة الغالية فقد سلخ من أيام ملكه الى تلك الساعة سبعة عشر عاما بالمغرب وسبقه آباؤه الثلاثة فقضوا قرابة نصف قرن فما قر لأحدهم ناظر ولا طاب لهم عيش .

لقد كان المغرب محنة الفاطميين صبروا عليها وعالجوها بأنضج العقول وتوسموا فى أعقابهم من يحمل بقيتهم إلى خير مستقر ، فكان نابغتهم المعز مفسر أحلامهم ومصدق ظنونهم وآمالهم . وأمر المعز فحمل الى جوهر أضعاف ما يتسع لأرزاق الجند ثم أدخله إلى خزائنه ليحمل ما يشاء منها .

وأكثر من الخلوة بجوهر وطالعه بسره ومخاوفه وأوصاه بالرفق بأهل مصر وإسباغ النعمة عليهم ثم حذره من بأس القرامطة فانهم سيغزون مصر على أثر الفتح وأملى عليه رغبته فى اختيار موضع لحاضرة الفواطم بمصر

وجاء عيدالمولد النبوى يوم الخميس الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ فاحتفل به المعز بمدينة القيروان واستمد فيه العون من الله واستلهم المدد من جده الرسول الكريم ثم أذن لجوهر بالسفر على بركة الله

وركب جوهر يوم السبت فخرج إليه المعز فى أولاده وولى عهده وأعمامه وبنى عمه وسائر الفاطميين

والتفت إلى شيوخ كتامة وكبار القواد الذين حول جوهر وقال : « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ولتدخلن مصر بالأردية من غير حرب ولتنزلن خرابات ابن طولون وتبنى لكم مدينة تسمى القاهرة

ولسنا فى حاجة لتمحيص تلك القصة لأن مصر كانت قد بلغت من سوء الحال حداً لا تحسد عليه

فقد كان القائم بالأمر فيها طفلا من حفدة الاخشيد وإلى جانبه قائد من بقايا رجال الاخشيد اسمه شمول يرعى فلولاً من الجند ليس فى خزائن الدولة متسع لأرزاقهم، ومن فوقهم وزير سيء التدبير كثير المصادرات لأموال الناس وهو أبو الفضل جعفر بن الفرات فقد تحاماه وجوه الناس خوف المصادرة، وكان ممن خافه على نفسه عظيم من أهل العقول الكبيرة وهو يعقوب بن كلس الإسرائيلى الذى دبر شؤون الدولة أيام الاخشيد فعزله ابن الفرات وصادر أمواله فاستتر بمصر أياماً ثم سافر الى المغرب وخلى بالمعز وهون عليه أمر الفتح وكشف له عن عورات القطر ولبث فى حاشيته الى أن عاد فى ركابه فكان له من أجل الوزراء

وان ما صنعه ابن كلس وأشباهه ممن لحق بخدمة المعز من أهل مصر قد شجعه على المضى فى نبوءته فبشر أمراء جيشه بالفتح القريب والدخول الى مصر فى ثياب الحضر بغير دروع سابغة ولا رماح مشرعة

وبدا للمعز أن يكشف للناس عن صلابته وحب الإذعان لمشيئته فأمر الناس أن يترجلوا لجوهر فلا يتخلف عن ذلك صغير ولا كبير ، وبدأ بولى عهده وبقية أبنائه وأهل بيته ، ثم بأركان دولته وسائر الناس وكتب بذلك لولاة الأمصار التى يمر بها جوهر فخضع الجميع لمشيئة المعز وترجلوا .

وكان عملا جليلا وتشريفا ليس بعده مزيد لقدر جوهر ، فترجل جوهر بعدذلك عن دابته ومشى إلى المعز فقبل يده ثم ركع وقبل حافر فرسه، وما سمعنا فى التاريخ أن ملكا رجّل الناس جميعا لقائد من قواده إلا ما كان من أبى بكر رضى الله عنه حين خرج يودع أسامة بن زيد ومعه جمهرة الصحابة من المهاجرين والأنصار فقد أمر أسامة أن لا يترجل .

لقد تحدث الناس طويلا عن ذهب المعز الذى حمله جيش الفتح ولكن حديثهم عن وداع جوهر أرهف الآذان وبهر العقول ، فقد كان المعز أكثر الناس ثقة بكفاية جوهر وإخلاصه وولائه فحمل الناس على تكريمه والاذعان لرياسته .

ولم يكف المعز ما أسبغه على جوهر من المال والجاه فأحب أن يكون وداعه يوما خالدا من أيام دولته فأمر ابن هانئ أن يوليه من أدبه ورقائق أشعاره فقام بين قباب الجند وقال :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع ... وقد راعني يوم من الحشر أروع
فلم أدر إذ سلمت كيف أشيّع ... ولم أدر إذ شيّعت كيف أودع
وأين ومالى بين ذا الجمع مسلك ... ولا لجوادى فى البسيطة موضع
فلا عسكر من قبل عسكر جوهر ... تخب المطايا فيه عشرا وتُوضِع
فلما تداركت السرادق فى الدجى ... عشوت إليه والمشاعل ترفع
تحف به القواد والأمر أمره ... ويقدمه زى الخلافة أجمع
برود أمير المؤمنين بروده ... كساه الرضى منهن ما ليس يخلع
وأعلامه منشورة وقبابه ... وحجابه تدعى لأمر فتسرع
وسل سيوفَ الهند حول سريره ... ثمانون ألفا دارع ومقنع
فسر أيها الملك المطاع مؤيدا ... فللدين والدنيا إليك تطلع
وقد أشعرت أرض العراقين خيفة ... تكاد لها دار السلام تضعضع
وأعطت فلسطين القياد وأهلها ... فلم يبق منه جانب يتمنع
وما جهلت مصر وقد قيل من لها ... بأنك ذاك الهِبْرِزِىُّ السَّمَيْدَعُ
وإنك دون الناس فاتح قفلها ... فأنت لها المرجو والمتوقع

وبلغ الجيش برقة فخرج عاملها أفلح الكتامى لاستقبال جوهر وكان قد جاءه كتاب المعز يأمره أن يترجل عند لقائه فحاول أفلح أن يهدى جوهرا خمسين ألف دينار على أن يقيله من الترجل له فأبى جوهر إلا أن تتم مشيئة

مولاه المعز فأذعن أفلح صاغرا وتمت كلمة المعز وصلابة عزمه فى تقديس مشيئته لتوفير حرمة من اختصه من كبار دولته. وتر ينا القصة التالية مبلغ صلابة المعز فى فرض طاعته على أركان الدولة ، فقد كان بين قواد جوهر أمير من كتامة اسمه جعفر بن فلاح حضر معه فتح مصر ثم سرحه لفتح الشام فتقدم على رأس جيشه حتى دخل دمشق وأنفذ كتبه بالفتح منها إلى المعز رأسا بافريقية فغضب المعز منه ورد كتبه كما هى مختومة لم تفض وكتب إليه .

قد أخطأت الرأى لنفسك نحن قد أنفذناك مع قائدنا جوهر فا كتب إليه فما وصل منك إلينا عن يده قرأناه ولا تتجاوزه بعد فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذى أردته وإن كنت أهله عندنا ولكننا لا نستفسد جوهرا مع طاعته لنا .

ودخلت الجيوش مصر وبلغت طلائعها ناحية تروجه وهى قرية من أعمال مركز أبى المطامير بمديرية البحيرة فى ١٨ من رجب سنة ٣٥٨ فاضطربت مصر بأسرها وفر منها الحسين بن عبد الله بن الأخشيد وبقى قائد الجند شمول فى فلول لا تغنى، وجمع الوزير جعفر بن الفرات أهل الرأى يتذاكرون بينهم حرج الموقف فبغتهم دخول رسل جوهر ينصحون بالتسليم فأجابهم سائر من حضر بالخضوع وطلبوا أمانا لأرواح الناس وأموالهم، وأوفدوا إلى جوهر سيدا من سادات العلويين وهو مسلم بن عبد الله الحسينى يسألونه الصلح ويستسلمون

فرحب به جوهر وأجابه إلى طلبه وكتب له ولسائر أهل مصر عهدا بالأمان وسلامة الأرواح والأموال والزروع .

وعاد مسلم إلى مدينة مصر يحمل الصلح والسلام ولكن فلول الاخشيديين أخذتهم العزة وأنفوا أن يسلموا مصر بغير قتال .

وخرج بهم قائد اسمه نحرير الشويذانى ورابطوا ناحيــة الجيزة وحفظوا جسور النيل ومنعوا العبور إليهم وأعلنوا أنهم سيقاتلون .

فنــدب لهم جوهر قائده الـكتامى الشهير وهو جعفر بن فلاح وقال له : لهذا اليوم أرادك مولانا المعز لدين الله .

فسار جعفر بكتائبه جنوبا حتى دخل بلاد مركز امبابه وجعل يتحسس المخاضات حتى بلغ ناحية تسمى منية الصيادين ، وتسمى اليوم ميت النصارى فاستولى على مخاضة عند منية شلقان وهى قرية تقع شرقى القناطر الخيرية .

وعبر جعفر النيل عريانا فى سراويل ومعه رجاله يخوضون النهر واستقبل الجنود المرابطين له فهزمهم واستأمن الباقون .

ولحق جوهر بجنوده وأرسل رسولا يحمــل راية الأمان فسكن الناس وفتحت أسواق مدينة مصر .

وفى يوم الأربعاء ١٨ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ بعد زوال الشمس دخل جوهر المدينــة فى طبوله وبنوده وعليــه ثوب ديباج مذهب كما بشر به المعز

وطاف بها حتى خرج من دروبها الشمالية وامتد به المسير حتى أناخ بالموضع الذى أصبح مدينة القاهرة فأمر الناس فحفروا أساسا للسور وللقصر وباتوا ليلهم يبنون باللبن أول أسوار المدينة .

وأصبح الصباح وحضر أهل مصر يهنئون جوهرا بالفتح فوجدوه قد حفر أساس قصر الخلافة وأدار السور حول مناخه الذى نزل فيه ثم احتفر من شمالى المناخ خندقا عظيما ليكون للجيش حصنا يمنعه من عادية القرامطة إذا دهموهم ولا يزال موضع الخندق ماثلا فى مسجد المغفور له السيد عبد الرحيم الدمرداش ومستشفاه العظيم .

وخرج جوهر فى صباح الخميس ١٩ من شعبان يستقبل أشراف الناس والوجوه والعلماء فاجتمعوا بالجيزة ومعهم الوزير جعفر بن الفرات .

ونادى مناد من قبل جوهر بأن يترجل الناس جميعا إلا الشريف مسلما ابن عبد الله الحسينى والوزير فوقف جوهر والشريف عن يمينه والوزير عن شماله يسلم على الناس .

وكتب إلى مولاه المعز بالفتح وانطلق البشير فبلغ القيروان فى منتصف رمضان من تلك السنة فتكون الغزوة قد استغرقت ستة أشهر كاملة .

فمنذ خروج جوهر من القيروان فى منتصف ربيع الأول إلى أن بلغ أبواب مصر فى منتصف شهر رجب يكون قد قطع الطريق بجيشه الجرار فى

أربعة أشهر ومضى بين بلوغه الديار ودخوله العاصمة فاتحا شهر كامل و بلغت الرسل إلى إفريقيه بالبشرى فى شهر .

وفى شهر ذى الحجة من سنة ٣٥٨ و بعد تمام الفتح بأربعة أشهر جهز جوهر القائد الكتامى جعفر بن فلاح لفتح الشام فافتتح البلاد ونشر الدعوة للمعز فى أرجائها ثم دخل دمشق فاتحا وخطب على منابرها للمعز فى المحرم من سنة ٣٥٩ .

مذهب الشيعة

كانت أكبر وصية قالها المعز لجوهر أن يقيم بمصر الدعوة الفاطمية وينشر بين الناس مذهب الشيعة ويكسو أئمة المساجد بالبياض وصفائح المنابر بلواء الحمد، وأن يرابط بجنوده خوف عدوان القرامطة الذين لا يقلون خطرا وعنفا عن أقرانهم برابرة المغرب، وأن يبنى له ولأهله وجنده وديوانه مدينة لا تقل فى حسنها ونسقها عن مدائن الأندلس التى يساميه بها الناصر الأموى وولده المستنصر.

وليس فى كتب المؤرخين ما يدل على أن جوهرا قد أمر الخطباء بقطع خطبة العباسيين والدعاء للمعز على منبر الجامع العتيق وابن طولون فى أول جمعة أدركته بمصر على أن الراجح أن يكون قد طلب ذلك لأن البلاد أقرت بوقوع الفتح واستسلمت حكومتها للنائب عن الخليفة الفاتح فلا يعقل أن يبقى ولاؤهم لبنى العباس بعد أن خرجوا من طاعتهم ودخلوا فى طاعة الفاتح الفاطمى

وما كان ليضيرهم أن يدعوا على منابرهم للمعز طالما أنهم يؤدون الصلاة وفقا لشعائرهم التى يرضونها آمنين .

وكان من حسن السياسة أن يقنع جوهر من الفتح فى أول الأمر بالدعاء لامامه على المنابر على أن يعالج أمر الدعوة إلى المذهب الجديد فى الخطوة التالية

وكانت تقاليد الشيعة ظاهرة يجاهرون بها ويدعون إليها فى الأقطار التى يحكمونها ومن الإنصاف أن نقول انهم ما كانوا يكرهون أحدا على الأخذ بها إلا ما كان عاما يشترك فيه الجميع كالأذان والصلاة الجامعة .

ومن أركان مذهبهم قطع صلاة التراويح فى رمضان، وصيام يومين قبل رمضان والقنوت فى صلاة الجمعة قبل الركوع، والجهر بالبسملة فى الصلاة المكتوبة، وإسقاط (الصلاة خير من النوم) فى أذان الصبح، وزادوا عليها (حى على خير العمل محمد وعلى خير البشر) .

على أن من الإنصاف أن نقول بأنهم كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، وكان مذهب مالك والشافعى وابن حنبل ظاهرة الشعار فى مملكتهم بخلاف مذهب أبى حنيفة، وكانوا يراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه، وشهد الناس جميعا بحسن سيرهم فى رغبتهم واستمالة قلوب مخالفيهم والإقبال على من يفد عليهم من الناس جل أو دق ويعوضون أرباب الهدايا باضعافها .

وما كانت حكومتهم تعترف بسلطان لأية حكومة أخرى ولذلك كانوا

يرسلون الدعاة إلى جميع الأقطار الإسلامية ورئيس الدعوة كان يسمى داعى الدعاة وهو الذى يأخذ البيعة للامام .

وبهؤلاء الدعاة ملكوا اليمن والبحرين والحجاز وخطب لهم ببغداد نفسها، وكان خلفاء العباسيين من أول أمرهم يطاردون العلويين ويأمرون الولاة باخراجهم من مصر وحملهم إلى العراق وسائر البلاد حتى لا يذيع التشيع بين الناس ولكنهم تكاثروا واشتد ساعدهم بمصر .

فكانوا يقفون بقبر السيدة نفيسة والسيدة كلثوم العلوية للبكاء على الحسين فى يوم عاشوراء فيتصدى الناس لهم ، وكان السودانيون أكثر الناس زراية بهم ونيلا من تقاليدهم يتحككون بهم ويقولون فى وجوههم (معاوية خال على) وكان بمصر من العلويين أهل الأقدار الرفيعة وكان سيد الجميع وأدناهم إلى قلوب الحاكمين أبا جعفر مسلم الحسينى لم يمنعه جاهه ومقامه الرفيع من تصدى السفهاء له الذين كانوا يواجهونه بقولهم (معاوية خال على) .

ويشبه ذلك ما كان عليه جمهور أهل القاهرة فى ابان الثورة المصرية الأخيرة من النداء (سعد فوقك يا عدلى) .

ولقد كانت أعمال الشيعة شائعة ببغداد نفسها شيوعها ببلاد المغرب وإفريقية ، فمن العادات المرعية فى اليوم العاشر من المحرم أن يغلقوا الأسواق ويعطلوا المعاش ويظهروا الحزن والبكاء على الإمام الحسين .

وكان مقر الشيعة فى بغداد بالكرخ وكانت لهم ثورات وتراشق مع بقية

الناس فيناصرهم الأمراء من بنى بويه لأنهم يتشيعون وكان التشيع قائماً فى حلب أيام سيف الدولة، ولعهده نادى المؤذنون (حى على خير العمل محمد وعلى خير البشر) وتم ذلك عام ٣٤٧ ﻫ والمعز فى أشد قتال مع الناصر الأموى .

وبينما كان جعفر بن فلاح الكتامى يدخل دمشق فاتحا باسم المعز ويدعو له على منابرها فى المحرم من سنة ٣٥٩ كان أبو المعالى بن سيف الدولة يخطب للمعز على منابر حلب وحمص وسائر أعمالها .

وقضى جوهر بقية شعبان وشهر رمضان بأكمله يمهد للدعوة ويلق العلماء ووجوه الناس حتى أقبل عيد الفطر فعقد بالجامع العتيق حفلة الدعوة الفاطمية فى غرة شوال سنة ٣٥٨ وكانت بعد أربعين يوماً من الفتح فأزال السواد وهو شعار العباسيين وألبس الخطباء الثياب البيض ، وكان الخطيب أبا محمد الشمشاطى فدعى للمعز على المنبر . وأجمع المؤرخون على أن الدعوة أقيمت فى ذلك اليوم ولكنهم لم يغيروا الأذان إمهالا للناس ورفقاً بهم وتدرجاً بمقاصدهم حتى يألفها جمهور الأمة

وتراخى جوهر فى الدخول بتقاليد الشيعة أكثر من ثمانية أشهر حتى أنس الناس إليه وأمنوا جانبه وذاقوا حلاوة عدله ورخاء عيشه واستقر بينهم الأمن والسلام ووقاهم الله شر الغلاء والقحط

فلما كان يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ صلى جوهر الجمعة بجامع ابن طولون فى موكبه وكبار أمرائه وحاشيته وعلماء الشيعة وجنده فأذن المؤذنون لأول مرة بمصر بالأذان الشيعى وسمع الناس (حى على خير العمل) .

وقام الخطيب فى الثياب البيض ـ وكان عبد السميع بن عمر العباسى ـ فزاد فى الخطبة ما يأتى :

« اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علىّ المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين »

وصلى جوهر خلف الإمام ، فقرأ الإمام سورة الجمعة وقنت فى الركعة الثانية وانحط الى السجود ونسى الركوع فصاح به قاضى العسكر علىّ بن الوليد (بطلت الصلاة . . . أعد الصلاة ظهراً أربع ركعات)

وأنكروا على الامام أنه لم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى كل سورة ولا قرأها فى الخطبة

وصلى جوهر بالجامع العتيق بعد ذلك بأسبوعين وأمر أن تسرى شعائر الشيعة فى الصلاة والأذان فكان ما أراد واتبعها الناس على مضض وكتب جوهر بذلك كله الى المعز

وتشجع الشيعة بمصر وتظاهروا بشعائرهم ونادوا بتفضيل علىّ على سائر الصحابة .

فاشتكى المترددون على المسجد العتيق بأن امرأة عجوزاً عمياء تنشد بباب المسجد قصائد فى رثاء الحسين والثناء عليه والتعريض بغيره فأمر جوهر بحبس العجوز فتمادى النـاس فى حماقاتهم ونادوا جهارا (معاوية خال علىّ وخال أمير المؤمنين) فأرسل جوهر حين بلغه ذلك رجلا الى المسجد فنادى :

أيها الناس أقلوا القول ودعوا الفضول فانمـا حبسنا العجوز صيانة لها فلا ينطقن أحد إلا حلّت به العقوبة الموجعة »

وأطلق سبيل العجوز

وفى ربيع الأول من سنة ٣٦٢ قبيـل حضور المعز كان محتسب مصر سليمان بن عروة فعزر جماعة من الصيارفة فشغبوا وصاحوا (معاوية خال علىّ ابن أبى طالب) فهم جوهر أن يحرق رحبة الصيارفة لولا خوفه على المسجد

وحضر المعز ودخل القصر فى رمضان سـنة ٣٦٢ فـكتب على سائر الأماكن بمدينة مصر

(خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليـه وسلم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام)

على أن الخليفة الحـاكم بأمر الله حافد المعز أمر فى عام ٤٠٠ هـ بترك

(حى على خير العمل) من الأذان محاسنة لأهل السنة بمصر فكان أسمح نفساً من جده المعز مع أن المؤرخين شنعوا فيه وتقوّلوا عليه الكفر وسلقه العباسيون بألسنة حداد

لقد أتم جوهر شطرين مما وصاه به المعز ففتح مصر ونشر بها المذهب الشيعى وشرع يتم ما أمر به من إقامة حاضرة للفاطميين ينزلها المعز عند قدومه .

فاختط المكان الذى تشاد عليه المدينة وأحاطه بسور عظيم ودرعه بخندق فسيح فى أقصى الشمال، ثم استدعى المنجمين وأخبرهم بما يريد من عمارة بلد تكون دار الخلافة ومقر العلويين وجنودهم وأمرهم باختيار طالع سعيد ليضع به أساس البناء فاختاروا طالعاً لوضع الأساس وطالعاً لحفر السور

واختطت المدينة يوم السبت ٢٤ من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ بعد نشر الدعوة بشهر فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس وقالوا للعمال إذا تحركت الأجراس فألقوا ما بأيديكم من الطين والحجارة فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك، فاتفق أن غراباً حط على حبل من تلك الحبال فتحركت الأجراس جميعا فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة و بنوا فصاح المنجمون (القاهر فى الطالع) .

فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه. ويقولون إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة .

وكان محل القاهرة رملة بين مدينة مصر وعين شمس يكتنفها الجبل الأحمر من الشرق وخليج أمير المؤمنين من الغرب وما كان بها إلا بستان كافور الأخشيدى وكان الخليج فاصلا بين الرملة وقرية أم دنين أو المقس، وكان النيل يجرى بشاطئ المقس موضع جامع أولاد عنان إلى الشمال الشرقى حيث الحى المعروف اليوم بالفجالة، ووضعت أبواب قصر الخلافة يوم الخميس ١٣ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ وأدار عليه السور .

وكان الشروع فى بناء الجامع الأزهر يوم السبت ١٤ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ وفرغوا منه فى ١٧ من رمضان سنة ٣٦١ وكانت أول جمعة للصلاة فيه يوم ٧ من رمضان سنة ٣٦١ .

واختطت كل قبيلة خطة عرفت بها .

وتوالى العمران على القاهرة حتى أصبحت من أجمل مدائن الشرق فى سنوات قليلة .

وما نسينا أن الفاطميين قد عاشروا أهل الأندلس معاشرة جوار كل أيامهم الطويلة ببلاد المغرب لا يفصل الدولتين إلا مجاز ضيق وأن طبيعة التجاور كان من شأنها تبادل المنفعة فى التجارة والصناعة وسائر العلوم والفنون واقتباس العادات والأذواق .

وقد كانت دولة الفاطميين بالمغرب تستند إلى قبائل البربر وبخاصة قبائل

كتامة وصنهاجة وإلى بعض عناصر السودان وأهل صقلية، وكذلك كانت دولة الأمويين تستند إلى البربر من هواره وزناته وإلى السودانيين وأهل صقلية .

وقد اختار الناصر اسم الزهراء لمدينته التى بناها وكذلك سمى قصوره الزهراء فاقتبس الفاطميون تلك التسمية فكانت قصورهم تسمى الزهراء ومسجدهم يسمى الجامع الأزهر . وما يدرينا وقد شهدنا توافق الخواطر فى مزاج الدولتين أن تكون القاهرة قد بنيت على نسق مدن الأندلس من حيث أسلوب البناء ومزاج مهندسيها .

ويؤيد ما ذهبنا إليه أن المعز كان يرجو أن يفاخر شعراء المشرق بشاعره ابن هانئ لو لم يغتله خصومه ، ولعله أراد أن يفاخر المشرق بمدينة القاهرة التى شادها على النمط الأندلسى .

لقد زار مدينة القاهرة سائح فارسى اسمه الناصر خسرو وقد مضى على انشائها خمسون عاما فوصفها هى والفسطاط فى كتاب سماه سفرنامه فقال :

إن القادم إلى الفسطاط من بعيد يراها كالطود الشامخ فعمائرها وغالب قصورها من سبع طبقات، أما ثروتها فأخشى أن يرمينى الناس بالغلو إن ذكرت تفصيل ثرائها ونعمة العيش فيها ، وأما القاهرة فقل أن ترى بين بلاد الدنيا

ما يُشا كلها فى حسن مبانيها، وقد أحصيت بهـا آلاف الحوانيت والحمامات والدور والقصور والفنادق وكلها ملك للخليفة لأن النـاس منعوا من البناء داخل المدينـة وغالب دورها من خمس طبقات أو ست ،وترى قصر الخـلافة كالصرح العظيم فى وسط المدينة وقد بهرنى طلاء المبانى وحسن صناعته حتى كأن منازلها قد بنيت من الأحجار الـكريمة .

قرصان الشرق

كانت قبائل من العرب ومن الزنوج تقيم فى إقليم الأحساء شرقى جزيرة العرب وفى جزائر البحرين بالخليج الفارسى وثغور هجر والقطيف .

فلما انتشر دعاة أهل البيت العلويين فى ممالك الشرق يدعون للمهدى من أهل البيت من غير تعيين لاسم ذلك المهدى استجاب لهم كثير من الناس إجلالا لنسبهم الشريف .

فخرج بالكوفة والعراق والشام رجل يدعى الجنابى يدعو للامام محمد الحبيب والد عبيد الله المهدى جد الخلفاء الفاطميين ونشر دعوته فى بلاد البحرين فالتف الناس حوله وأقاموا له فى تلك البلاد دولة القرامطة فكانوا يدعون للخلفاء الفاطميين الذين بالمغرب وكان عامة المسلمين فى الشرق لايرونهم مثلهم من المسلمين لأن دعوتهم كانت على غاية من الاضطراب وعقيدتهم منافية لشرائع الإسلام ولأنهم أشهروا حربا عوانا على سائر بلاد الإسلام فكانوا يغزون البلاد ليلا على طريقة قرصان البحار فيسلبون الأموال ويقتلون الرجال

ويسبون النساء ويعودون إلى جزائرهم. وتعاقبت غزواتهم من أول القرن الرابع الهجرى فكتب الخليفة المقتدر العباسى إلى رئيسهم الجنابى كتابا لينا يحاسنه ويسأله أن يطلق من الأسر من كان عنده من المسلمين ويناظره ويقيم الدليل على فساد مذهبه .

وكان الجنابى قد مات وقام بالأمر من بعده أصغر أبنائه أبو طاهر وهو طفل فى السابعة من عمره وقد أصبح بعد ذلك أكبر قرصان البر فى القرن الرابع .

فلما بلغ السابعة عشرة فى عام ٣١١ هـ زحف على البصرة ليلا وتسورها برجاله على سلاليم من الشعر ووضع السيف فى أهلها فلما علموا أنهم القرامطة طرحوا أنفسهم فى البحر من الخوف والفزع وراح أغلب الناس غرقا، وقتل رجالهم وسبيت نساؤهم، وبعد عام وقف أبو طاهر يستقبل الحاج العراقى فى عودته إلى بغداد فقتل غالبهم ونهب أموالهم وترك الباقين فى الصحراء حتى ماتوا من العطش .

واشتد طمعه فى ملك بنى العباس فطلب من الخليفة أن يوليه البصرة والاهواز فرفض فزحف إلى الكوفة وكان الحاج العراقى قد خرج فى حراسة فرقة من الجيش فقاتلها أبو طاهر وقتل عامة الجيش ورد الحاج إلى العراق ولم يحج أحد .

وفى عام ٣١٥ خرج أبوطاهر متحديا الخليفة المقتدر وسائر أمراء الشرق

فجمعت عليه الكتائب والجيوش حتى بلغوا ثمانين ألفا وكان هو فى عدد قليل دون الثلاثة آلاف .

فهابه الناس وفر من وجهه الجنود والقواد وظلوا بعيدين عنه لا يجسرون على قتاله فطغى وفرض الاتاوة على قبائل العرب التى بالجزيرة .

وجاء عام ٣١٧ ﻫ فتحدى أبو طاهر سائر العالم الإسلامى وغزا مهد الإسلام مكة المكرمة ودخلها يوم التروية ونهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه وقلع الحجر الأسود وأرسله إلى بلده هجر، فخرج إليه أمير مكة فى جماعة من الأشراف وسألوه أن يرد إليهم أموالهم فرفض فقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وأصعد رجلا ليقلع المئزاب فسقط الرجل فمات وطرح القتلى فى بئر زمزم ودفن الباقين فى المسجد الحرام حيث قتلوا وأخذ كُسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة .

فانهالت عليه اللعنة من كافة المسلمين ورموه بالوثنية والمروق من الدين وكان أشد الناس نقمة عليه عبيد الله المهدى الفاطمى فكتب إليه ينكر عليه فعلته ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول (قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى سائر الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة ثم أعقبه بكتاب قال فيه « والعجب من كتبك إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية

تحرم اراقة الدماء فيها وإهانة أهلها ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك فلعنك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمون من لسانه و يده .

فانحرفت القرامطة من ذلك اليوم عن طاعة الفاطميين ولكنهم لم يكفوا عن غزو بلاد العراق أيام الحج، فخرج أبو طاهر فى عام ٣٢٣ يقطع طريق الحاج من العراق فتصدى له جماعة من العلويين الأشراف بالكوفة وسألوه أن يكف يده عن الحاج فكف عنهم ولكنه أمر ألا يحجوا .

وحاول الخليفة العباسى أن يسترد الحجر الأسود وعرض أحد أمراء الترك ببغداد على أبى طاهر خمسين ألف دينار على أن يرد الحجر فلم يقبل .

وجاءت أيام المنصور والد المعز فدخل القرامطة فى طاعته فاشترط عليهم أن يردوا الحجر الأسود فردوه وكان ذلك فى عام ٣٣٩ فمكث فى حوزتهم اثنين وعشرين سنة .

ورد الاخشيد عدوانهم على الشام ومصر لقاء ضريبة قدرها ٣٠٠ ألف دينار كل سنة

فلما جاء المعز الى الحكم جعل يداريهم كل أيامه التى قضاها بالمغرب ليكونوا شاغلا يشغل عنه الشرق ، وظل يهاديهم سياسة منه، ثم دخل جوهر مصر فاتحاً باسم مولاه المعز وأنفذ جعفر بن فلاح لفتح الشام ووصاه المعز بألا يعطى القرامطة شيئاً من المال الذى فرضوه على الشام كل عام، وكتب الى

رئيسهم الحسن بن طاهر وأغلظ له ، فخلع الحسن طاعته وسار الى بغداد وسأل الخليفة المطيع أن يمده بالمال والرجال و يوليه الشام ومصر ليخرج منها المعز فامتنع المطيع وقال : (كلهم قرامطة على دين واحد)

فخرج الحسن بن طاهر يحمل أعلام العباسيين السوداء وتظاهر أن الخليفة قد ولّاه وأنفذ قائده الأعصم الى دمشق وكان عليها جعفر بن فلاح فاستهان بالقرامطة ولم يحترز منهم فكبسوه بظاهر دمشق وقتلوه وأخذو ماله وسلاحه وملكوا دمشق ثم ساروا الى الرملة واستولوا على جميع ما بينهما من البلاد ثم ساروا الى مصر فانضم إليهم خلق كثير من العرب من قبائل طيء والجند وفلول من جنود الاخشيد وكافور

فتأهب جوهر لقتالهم وحفر الخندق حول القاهرة من الشمال و بنى قنطرة على الخليج من الجانب الغربى للمدينة وعبأ جيشه المغربى ومن انضم إليه من المصريين

وصحت لديه فراسة المعز الذى ضاعف له السلاح والمال والرجال لأنه سيلقى من القرامطة يوماً عصيباً دونه أيام الشرق بأسرها وهم الذين استهانوا بأعظم حرمات الاسلام ودنسوا بيت الله وحرمه ونقلوا الحجر الأسود كيف يبالون بامام الشيعة وجيوشه .

وفى أول المحرم سنة ٣٦١ هـ بلغت القرامطة عين شمس وانتشروا فى نواحيها .

فأمر جوهر أهل مدينة مصر بالخروج لمعونته وأن يدفعوا العدوان عن أنفسهم وطلب الأشراف العلويين أول الناس

فخرج أولهم أبو جعفر مسلم الحسينى فى أولاده وعبيده

ونصب خيامه إلى جانب عسكر جوهر وخرج كثير من الناس، وفى شهر ربيع الأول التحم أول قتال مع القرامطة على باب القاهرة وكان يوم جمعة فقتل من الفريقين جماعة وأسر جماعة وأصبحوا يوم السبت متكافئين

ولم يغفل جوهر ما وصاه به المعز من بذل المال الى أقصى حدود السخاء اذا اشتد حرج الموقف فأنفذ دعاته بأكياس الذهب الى قبائل عقيـل وطى والى أتباع كافور وأتباع الاخشيد الذين مع القرامطة فملأ غرائرهم بذهب المعز ومنّاهم بالوعود فتخلفوا عن صفوف القرامطة ووعدوا بالانصراف عنه اذا قاتله يوم الأحد

وجاء يوم الأحد فسار الأعسم بجميع عساكره ومشى للقتال على الخندق والباب مغلق، فلما زالت الشمس وحلّ الأجل المضروب بين جوهر والقبائل وسائر الجنود فتح الباب وخرج بجنوده وقاتل القرامطة أحسن قتال ولم يمكث الأعسم طويلا فى القتال لأن حلفاءه من العرب وأجناد الترك تخلفوا عنه فولى منهزماً وقتل من أتباعه خلق كثير ولم يتفق للقرامطة أن كسروا أقبح من هذه الكسرة ونادى جوهر يشجع المصريين والعرب من جاء بالقرمطى أو برأسه فله ثلاثمائة ألف درهم وخمسون خلعة وخمسون سرجاً بدوابها

وفر القرامطة من مصر وعادوا الى بلادهم يتجهزون للغزو مرة ثانية وكان المعز قد دخل القاهرة وتناول بيده زمام دولته وانصرف لتنظيم الدواوين وندب الولاة للأقاليم ، فسمع بمسير القرامطة لقتاله فكتب الى رئيسهم الحسن ابن احمد كتاباً يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته ، وان دعوة القرامطة تنصرف إليه وإلى آل بيته وآبائه من قبل ووعظه وبالغ فى تهديده ، وكان القرمطى قد عزم على قتال المعز فاجترأ عليه وكتب اليه يقول : وصل كتابك الذى قلّ تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون إليك على أثره والسلام

وسار حتى بلغ مصر وكان ذلك عام ٣٦٣ فنزل بعسكره عين شمس كما فعل بالمرة الأولى وأنشب القتال وبث السرايا فى البلاد ينهبونها فكثرت جموعه وأتاه من العرب خلق كثير وأولهم حسان بن الجراح الطائى أمير العرب بالشام ومعه جمع عظيم، فلما رأى المعز كثرة جموعه استعظم ذلك ولم يخرج الجيش لقتاله واستشار أهل الرأى من نصحائه فقالوا ليس من حيلة إلا السعى فى تفريق كلمتهم وإلقاء الخلف بينهم ولا يتم ذلك إلا بابن الجراح الطائى أمير العرب فابتسم المعز لشيوع سياسته بين زعماء دولته، وراسل ابن الجراح و بذل له ١٠٠ ألف دينار فمال إليه وكان قد حضر مع القرامطة طمعا فى الغنائم من أى طريق فاستحلفه المعز بحلف أنه إذا أخذ المال المقرر انهزم بالقبائل التى معه .

وكان المعز قد أعد له دنانير من نحاس ألبسها الذهب وجعلها فى أسفل

الأكياس وجعل الذهب الخالص من فوقها وحمل إليه المال وواعده ابن الجراح بأنه سيخرج بعسكره مع القرمطى يوم كذا من ناحية كذا ووصاه بالخروج إلى قتاله فانه متى رأى جيشه فقل منهزما ففعل المعز ما وصاه به الجراح فانهزم العرب و بقى القرامطة فنالهم من القتل والأسر ما لم يسمعوا مثله ، وفرت فلولهم إلى بلادهم على أن يستأنفوا الغزو بعد موت المعز الذى استطاع أن يكبح جماحهم دون سائر ملوك الأرض .

منازل المعز

ما ودع المعز قائده جوهر وسرحه بجيوشه الجرارة إلى مصر فى عام ٣٥٨ ﻫ حتى خرج عليه الثائر الذى لا ينام عن التمرد والعصيان وهو أبو خزر الزناتى والتف به جموع زناته كعاداته وأيامه السالفة وأراد اقتحام الدروب إلى جبل أوراس وكانت مدينة باغايه مفتاح تلك الدروب وللمعز عامل عليها من قبيلة كتامة المخلصة كان يوصيه باليقظة والحذر ومراقبة الدروب المفضية إلى الجبل وبث العيون بين قبائل زناته التى لا تكتم بغضه وأهل بيته .

على أن المعز خرج بنفسه هذه المرة يقاتل ابن خزر وقد عزم على استئصاله ففر ابن خزر إلى الصحراء وتوارى بها لبضعة أشهر ثم عاد مستأمنا يسأل الصفح فغلب المعز عفوه وسماحة خلقه ولكن الرجل كان خسيس الطبع ليس فيه موضع للندى فبادر لآخر مرة فى حياته وجنح إلى العصيان فسلط المعز عليه عدوه وعدو زناتة بأسرها وهو زيرى بن مناد الصنهاجى فلحق به فى أوعار الجبال وكان ابن خزر قد سئم المطاردة فقتل نفسه وختم بذلك أشق

حياة سمع بها الناس لرجل كرس نفسه أربعين عاما لمقاتلة الفاطميين ثم مات آخر الأمر ميتة الأدنياء، وقد أتم الحلقة العاشرة من العمر.

وسر المعز لموته فقد فل به حد زناتة بأسرها واستأذن عليه شاعره ابن هانئ مهنئا فقال:

هذا المعز وسيف الله فى يده ... فهل لأعدائه بالله من قبل

وهذه خيله غرا مسومة ... يخرجن من هبوات النقع كالشُّعَل

لقد قصمت من ابن الخزر طاغية ... صعب المقادة أباء على الجدلِ

إذ لا يزال مطاعا فى عشيرته ... تلقى إليه أمور الزيغ والبَجَل

ومن جبابرة الدنيا الذين خلَوا ... وأنزل الله فيهم وحيه فتُلى

لم يلق جالوت من داود ما لقيت ... شراته منك فى حل وفى رِحَلِ

فمن ظُباك إلى عليا قناك إلى ... نار الجحيم فما يخلو من النقل

وتضاعف سرور المعز بوصول البشرى من عند جوهر بفتح مصر وإقامة الدعوة بها والدعاء له على منابرها، وتوافدت ملوك البربر ورؤساء العساكر إلى المنصورية للهناء ففتحت لهم أبواب القصر وجلس المعز مجلسا عاما يستمع إلى الشعراء والخطباء فكان أعظمهم روعة وأسماهم خيالا شاعره العبقرى ابن هانئ وقد اخترنا القليل من تلك الرقائق الذهبية وهى:

تقول بنو العباس هل فتحت مصر ... فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الاسكندرية جوهر · تطالعه البشرى ويقدمه النصر
وقد أوفدت مصر إليه وفودها · وزيد إلى المعقود من جسرها جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت · وأيديكم منها ومن غيرها صفر
فلا تكثروا ذكر الزمان الذى خلا · فذلك عصر قد تقضى وذا عصر
وذا ابن نبي الله يطلب وتره · وكان حرٍ أن لا يضيع له وِتْر
أفى الشمس شك انها الشمس بعدما · تجلت عيانا ليس من دونها ستر
ألا تلكم الأرض العريضة أصبحت · وما لبنى العباس فى عرضها فتر
فقد دالت الدنيا لآل محمد · وقد جررت أذيالها الدولة البكر
وما ضر مصراً حين ألقت قيادها · إليك أمد النيل أم غاله جزر

وتواترت بعد ذلك كتب جوهر على المعز بفتح الشام وعبور القرامطة وقتالهم ويلح عليه بالرحيل إلى الشرق قبل أن يستفحل الأمر .

وأراد المعز أن يختار للمغرب رجلا يحكمه من بعده يكون صلب العود تسنده من ورائه عشيرة قوية الساعد عريقة المجد وتكرهه زناته كما تكره البيت العلوى، وجال بخاطره أمراء كتامة وهى صادقة التشيع ولكنها لا تجاور زناتة فى المناخ وقد فنى أبطالها فى سبيل دولته وتأسيسها وتسكين الثورات عليها وندب بقيتهم لفتح مصر والشام ورأى بثاقب رأيه أن قبيلة صنهاجة هى هدفه وغاية مطلبه وأن بلكين بن زيرى سيدها أليق الرجال وأقدرهم لخلافة

المغرب، وكان ينافسه فى المنزلة فى ديوانه جعفر بن على الأندلسى الذى جعله حاكما على إقليم الزاب بأسره متحكما فى رقاب زناته .

ورأى المعز أن جعفرا لا يدانى بلكين بن زيرى فى شجاعته ونفوذه وعداوته الموروثة لزناته وكان قد أشرك معه عمه الأمير أبا طالب فى اختيار خليفته فقال له سأريك يا عمنا دخائل الرجلين الواحد بعد الآخر .

واستدعى المعز جعفرا ليتعرف خفاياه ومطامعه وكاشفه برغبته فى استخلافه على المغرب فقال « تترك معى أحد أولادك أو اخوتك يجلس فى القصر وأنا أدبر ولا تسألنى عن شئ من الأموال لأن ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه وإذا أردتُ أمرا فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلىّ » .

فغضب المعز وقال يا جعفر عزلتنى عن ملكى وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى واستبددت بالأعمال والأموال دونى تم فقد أخطأت حظك وما أصبت رشدك .

فخرج عنه ثم استدعى بلكين بن زيرى وقال له تأهب لخلافة المغرب فأكبر ذلك وقال :

« يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب فكيف يصفولى وأنا صنهاجى بربرى، قتلتنى يا مولانا بغير سيف ولا رمح » فما زال به حتى أجاب بشريطة أن المعز يولى القضاء

والخراج لمن يراه ويختاره ويجعل الحيز لمن يثق به ويجعله قائما بين أيدى هؤلاء فمن استعصى عليهم يأمره هؤلاء به حتى يعمل به ما يجب ويكون الأمر لهم ويصير كالخادم بين أولئك .

فأحب المعز ما قال وشكره فلما انصرف التفت أبو طالب إلى المعز وقال « وثق يا مولانا بهذا القول من يوسف وأنه يقوم بوفاء ما ذكر » .

فقال المعز :

يا عمنا كم بين قول بلكين وقول جعفر، فاعلم أن الأمر الذى طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف، وإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوى العقول وهو نهاية ما يفعله .

ورجع جعفر من عند المعز مغضبا وقد أصر على الخروج إلى الأندلس واللحاق ببلاط خليفته المستنصر واتصل بزعماء زناتة وكاشفهم بذلك ورجح عنده أن المعز لن يعدل ببلكين أحدا فسيكون خليفته على المغرب وكره أن يعيش فى بلاد تحت ولاية عدوه الصنهاجى .

وعرف زيرى وولده بلكين ما دار بنفس جعفر فنقلاه إلى المعز .

وغادر جعفر مدينة المسيلة حاضرة ولايته وانحدر إلى عشائر زناته وعبأها للحرب وما كان زيرى قد أخذ أهبته ففجأه جعفر وقتله وحمل رأسه إلى الخليفة المستنصر الأموى مع وفد من وجوه زناتة على رأسهم أخوه يحيى بن على يمهدون له الأمر .

ولحق بهم جعفر فأقام ببلاط الأمويين بغرناطة حتى كانت أيام المنصور ابن أبى عامر فاستعان بهم على تأديب العصاة الخارجين عليه .

ورأى المعز أن يؤيد بلكين بعد قتل أبيه زيرى فولاه مكان أبيه وضم إليه ولاية الزاب بأكملها وحكمه فى رقاب زناتة خصومه .

وشرع المعز بعد ذلك يتجهز للرحيل إلى مصر وقد استحثه جوهر وألح عليه فى الحضور لأن القرامطة قتلوا جعفر بن فلاح القائد الكتامى على أبواب دمشق ودخلوا مصر ليحاربوه عليها .

وقبل أن ينتهى عام ٣٦١ الهجرى بأيام كان المعز قد فرغ من شؤون المغرب فعقد بمدينة المنصورية مجلسا عاما من كبار الدولة وشيوخ القبائل فى يوم الأربعاء ٢٣ من ذى الحجة سنة ٣٦١ وأعلمهم أنه سيترك البلاد إلى مقره الذى اختاره بمدينة القاهرة وقد استخلف عليهم بلكين بن زيرى الصنهاجى فعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، واستدنى منه بلكين امام أمراء المغرب وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح واختار له مدينة القيروان مقرا لحكومته ثم خلى به وأوصاه بما رءاه من وجوه المصلحة فى حكم القبائل المتنافرة وأكد عليه فى فعلها ثم ختم وصاته فقال :

إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية ، والسيف عن البربر ، ولا تول أحداً من إخوتك وبنى عمك فانهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك وافعل مع أهل الحاضرة خيراً

وكان الوالى على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامى وكان المعز يحبه ويجله فلم يجعل ليوسف بلكين سلطاناً عليه ولا على أحمد بن الحسن والى صقلية ، وأفلح والى برقة فقد كان الجميع من أمراء كتامة المخلصين

وأمر المعز فخرج العمال وجباة الأموال باسم يوسف بلكين

وكان الجيش القائم الى مصر قد عسكر مع المعز بظاهر المنصورية من آخر شوال سنة ٣٦١ فانتقل الى ناحية سردانية وكان يميل الى سكناها لحسن موقعها وكثرة ثمارها فلحق به رجاله وعماله وأولاده وأهل بيته وجمع له ما كان فى قصر المنصورية وسائر قصوره من أموال وأمتعة وذخائر وكنوز آبائه من عهد دخولهم المغرب

وارتحل المعز من سردانية فى ٥ صفر سنة ٣٦٢ وفى ركابه يوسف بلكين خليفته على المغرب وسائر ملوك البربر ورؤساء القبائل للوداع . ولما ودعهم رطب لسانه بحمد الله وبالمزيد من شكره فقد أنجز وعده وجزاه بما صبر على بلاء بلاد المغرب جنة الدنيا وكنانتها ثم ألقى نظره على توابيت آبائه التى حملها معه الى خير مقر من أرض الله الواسعة وجعل يطوى الأرض حتى دخل طرابلس .

وكان بين جنوده فلول من زناتة دسوا أنفسهم بين الناس تمويهاوتضليلا

فلما بلغوا جبال نفوسه فروا إليها ولحقوا باخوانهم الاباضيين ولعلهم تنكروا بين القبائل فى ركاب المعز ليبلغوا جبال نفوسه فلم يبال المعز بهم وحمد الله الذى طهر أتباعه من المنافقين ، ودخل الركب العظيم برقة فى أواخر رجب سنة ٣٦٢ وكان فى ركابه شاعره محمد بن هانئ فأراحوا أياما على شاطئ بحر الروم ثم أشرق عليهم الصباح يوما فوجدوا ابن هانئ مقتولا بجانب البحر وأكبر الظن أن قاتليه من الأمويين الذين كانوا يرصدونه من عهد أن أجاز البحر إلى المغرب ولعلهم من خصوم المعز الاباضيين الذين فر بعضهم إلى جبال نفوسه فكرهوا أن يحمل المعز إلى الشرق شاعر المغرب الذى لا يعادله من بعده أحد .

وحزن المعز على موت ابن هانئ وقال هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فعند الله نحتسبه .

وحث السير فبلغ الإسكندرية فى ٢٣ من شعبان سنة ٣٦٢ فاستقبله بها سائر أعيان البلاد ومعهم قاضى مصر أبو طاهر الذهلى فأحسن لقياهم ورحب بوجوههم وخاطبهم طويلا فقال :

إنه لم يأت مصر فاتحا ليزيد فى ملكه ولكن ليدفع العدوان عن الأرض المقدسة فقد شارف الروم بلاد الشام ثم وعظهم بما فتح الله من بليغ القول حتى أبكاهم .

وسار إلى القاهرة حتى بلغ الجيزة وكان جوهر قد عقد له جسرا جديدا فسار عليه إلى الجانب الشرقى من النيل .

وزين المصريون له مدينة مصر أجمل زينة وظنوا أنه سيدخلها لأنها حاضرة الديار المصرية ومقر رجال الدولة وكبار العلماء والأشراف والتجار وبها القصور والمساجد والمتاجر العظيمة، ولكنه لم يدخلها بل ساق ركبه إلى القاهرة مقر الخلافة الفاطمية فكان من المعز عملا عظيم الدلالة لفت إلى القاهرة الأنظار فأصبحت بعد ذلك محطا للرحال، وكان دخوله يوم الثلاثاء لسبع خلون من رمضان سنة ٣٦٢ من بابها الجنوبى وكان حول ركابه بطون من كتامة تدعى زويلة فأمر بأن يسمى ذلك الباب باسمهم تشريفا لقدرهم وتخليدا لذكرهم فأصبح الباب القبلى يسمى باب زويلة ، واعتاد الجلوس به فى دولة الترك متولى حسبة القاهرة فسماه الناس باب المتولى .

ولما بلغ القصر خر ساجدا لله ثم صلى ركعتين شكرا لله الذى مهد له ملك مصر وأدان لحكمه شعبا كريما ، وصلى بصلاته سائر من دخل معه .

واستقر بقصره بأولاده وحشمه واخوته وأعمامه وخواصه، والقصر يومئذ فيه جميع ما يكون للملوك من عين وورق وجوهر وحلى وفرش وأوان وثياب وسلاح وسروج و بيت مال بحاله .

وكان معه سبعة من قواد الصقالبة بجنودهم الذين كانوا يسمونهم الروم وهم سعاده وريدان وعطوف وجودر ويانس ونادر وبرجوان .

فخلد أسماءهم على القطائع والحارات والأحياء التى نزلوها وإلى اليوم نقرأ بين أسماء الأحياء درب سعاده والريدانية (العباسية) وحارة العطوف والجودرية ودرب اليانسية ودرب نادر وحارة برجوان وحارة الروم وأقام بقية العشائر بسائر الحارات والقطائع التى أنشأها جوهر شمالى القصر وجنوبيه .

وفى أول المحرم من سنة ٣٦٣ انتشرت قبائل المغاربة الذين قدموا مع المعز فى نواحى قرافة مصر فنزلوا دور الفسطاط وأخرجوا الناس منها

وكان المعز قد أمرهم أن يسكنوا أطراف المدينة ، فخرج الناس أهل الفسطاط يستغيثون به فأمر بإخراج المغاربة من مساكن الناس وأن يسكنوا ناحية عين شمس، وركب بنفسه حتى شهد المواضع التى نزلوها وأمرلهم بمال يبنون به بيوتهم فشيدوها فى الموضع الذى يعرف بالخندق فى شمالى القاهرة وهو اليوم حى الدمرداش وجعل لهم والياً وقاضياً وحظر عليهم سكنى مصر أو المبيت بها ، وكان مناديه ينادى كل عشية لا يبيتن أحد فى المدينة من المغاربة، وكان المعز قد وصى جوهراً باختيار منازل على النيل يبنى بها قصراً جميلا وبستاناً كبيرا لزوجته السيدة تغريد أم الأمراء ، فقام جوهر ببناء القصر وتنظيم البستان على أجمل وجه وصناعة وزخرف

فخرجت أم الأمراء لأول عهدها بأرض مصر الى قصرها فما كان أحسن منه بين قصور الملوك والأمراء ، له شرف تمتد على النيل والبستان يحف به ، فقالت وهى تبتسم : تلك لعمرى « منازل العز » فتلقفها الناس وتناقلوها وتحدثوا بقصر السيدة تغريد ومتنزه منازل العز واختاره المعز لرياضته وتنزهه هو وسائر الخلفاء من بعده .

واعتكف المعز فى قصره أياماً سبعة بعد سفر طويل ، فقد خرج من افريقية فى الخامس من شهر صفر ، ثم دخل القاهرة فى السابع من رمضان فقضى نيفاً وسبعة أشهر على ظهور الرواحل و بين المضارب . فلما كان فى يوم النصف من شهر رمضان جلس للناس جلوساً عاما فى الإيوان الجديد وأذنهم بالدخول ، وقيل إنه جعل أكداس الذهب التى حملها من المغرب فى هيئة الطواحين كتلاً متراصة على دعائم باب القصر الكبير رآها الناس فدهشوا من ثرائه ومن تراكم الذهب ببابه وأطلقوا عليه باب الذهب وضرب من عهدها المثل بذهب المعز

ودخل عليه الأشراف من أهل بيته ممن كان معه بالمغرب ومن الحسنيين و بنى الحسين المقيمين بمصر وكان جوهر قائما بين يديه يقدم الناس قوماً بعد قوم على مراتبهم وأقدارهم

وأقبل جوهر بهديته التى عبأها ، وكان هذا تقليداً متبعاً رأيناه يوم تولى

المستنصر الأموى بعد أبيه الناصر فقد حمل إليه وزيره من الهدايا ما يعجز القلم عن وصفها فأراد جوهر أن يمشى على نسق ملوك المغرب فكان بين الهدية مائة وخمسون فرسا مسرجة ملجمة منها مذهب ومنها مرصع ومنها معنبر، وإحدى وثلاثون قبة على نوق بخاتي بالديباج والمناطق ، منهـا تسعة بديباج مثقل وصناديق مشبكة يرى ما فيها ، وبها أوانى الذهب والفضة ومائة سيف محلى بالذهب والفضة، ودرجان من فضة فيها جوهر وتسعمائة ما بين تخت وسفط فيها سائر ما أعد له من ذخائر مصر

ومشى المعز الى الضريح الذى أعده جوهر ليـكون مقرا لرفاة آبائه فكان جناحاً عظيما من القصر به القباب وأعمدة المرمر وقد ملئت سقفه بالقناديل التى سلاسلها من خالص الذهب قوموها بخمسين ألف دينار وعرفت بتربة الزعفران ، فوارى بها توابيت آبائه وبهـا دفن المعز وسائر الخلفاء وأبناؤهم وكان موضعها جنوبى القصر ينزلون عندها فى المواكب العامة فلما زالت دولتهم بقيت لتلك القبور كرامتها وحرمتها كل أيام الأيوبيين وسلاطين مصر من بنى قلاوون الى أن جاء عصر الظاهر برقوق وكان عصر ارهاب وفتنة فقام أحد الأمراء المسمى جركس الخليلى وكان سخيفاً جاهلا فعمد الى قبور الخلفاء فهتك حرمتها وهدمها وحمل عظام الموتى و بقايا الأئمة وألقاها على كيمان البرقية ، ولم يجد أحداً من الأمراء أو العلماء فيصده عن غيه ، وشيد فى مكان

القبور خاناً عظيما يحمل الى اليوم اسم بانيه وإثم هتك الحرمات التى كانت فيه وهو خان الخليلى المشهور الذى بنى لأول مرة عام ٧٩٠ ﻫ

وجاء السلطان قانصوه الغورى بعد ذلك فى عام ٩١٨ فهدمه وجدد بناءه الباقى الى الآن ، وقد انتقم الله للأئمة أبناء الرسول من جركس الخليلى فقد قتل على أثر فعلته وألقيت جثته فى الطريق تنهشها الكلاب

تميم بن المعز

لقد أنجب المعز أربعة من الذكور فكان أكبرهم تميم وبه تكنى المعز وكان مولده بالمهدية عام ٣٣٧ فى خلافة جده المنصور قبل مولد أخيه العزيز بسبع سنوات .

جاء إلى الدنيا وقد صفا للفاطميين الجو وكفاهم الله شر الثائر أبى يزيد فاستقروا فى مضاجعهم إلى حين .

ودرج تميم فى أحضان النعمة وغذى برقيق العيش فترعرعت فيه سليقة الأدب التى كانت شيمة آبائه فانحدرت إليه من اصلابهم وأذكتها كثرة المطالعة والتحصيل .

وكان جوادا سمحا عشير الناس يخالط ويداخل ويستمع إلى حديث المجتمع وسمره وأغانى قيانه .

وجال فى عالم الأدب قديمه وحديثه وما قرض ابناء الخلفاء من الأمويين

والعباسيين من غزل وشراب وأغاريد فطبع بطابع ابن المعتز العباسى ويزيد الأموى ومن سما سموهما من أبناء خلائف الأندلس الرطيب وكان أبوه يرجو أن يراه وليا لعهده لذكائه وعلو همته وسخاء يده فأقنطه مزاج فيه دعة ومرح ونزوع إلى ترف الحياة والمعاقرة وهى خلال تسمو عنها آداب الخلافة فمال إلى أخيه العزيز .

ودخل تميم القاهرة فى موكب أبيه وقد أوفى على الخامسة والعشرين أنضر ما يكون شبابا وجاها وفراغا من أعباء الملك فأخذته فتنة النيل بواديه الأخضر وضياعه وبساتينه واسترقه عيش النعيم وأخلاق الأنداد من أهل البلاد وكثرة الأعياد والمغانى بين نيروز وغطاس ووفاء نيل فتبسط فى غمار ظل ظليل من جنة الدنيا التى كانت تصبو إليها نفسه .

وأعجبته بركة الحبش أجمل منازه مصر بجنوب الفسطاط فشاد لنفسه فى جوارها قصرا وبستانا يشارفانها حتى إذا أقبلت أيام النيروز وخرج الناس فى المضارب والقباب والثياب الجميلة والأهل والولد والجوارى والقيان المسمعات يأكلون ويشربون وينعمون خرج عليهم تميم فى مائتى فارس من عبيده بالعسس عليهم فى كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة حظهم وينصرفوا فينامون كما ينام الإنسان فى بيته آمنين لا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبه .

ويركب تميم فى عشارى ومن ورائه أربعة زوارق بها الفاكهة والطعام والشراب فان كانت الليالى مقمرة والا كان معه من الشموع ما يعيد الليل

نهاراً ، فاذا مر بقوم واستطاب من غنائهم صوتاً طلب أن يعاد الصوت وسألهم عما ينقصهم من طعام أو شراب أو فاكهة فيأمر به ثم ينتقل عنهم الى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله ثم ينصرف الى قصره .

تلك لمحة عاجلة من أيام تميم نسوقها لتصوير ناحية من صدر العصر الفاطمى كان فيها ديباجة المجتمع فى سماحة خلقه وزهوه ونشوة مرحه

وكان أروع ما نشر من أدبه ما سار فيه على هدى سليقة الغضب لآبائه فتناول لابن المعتز قصيدته التى يسامى بها العلويين ويؤثر عليهم فضل آبائه فمنها :

قتلنا أمية فى دارها ... فكنا أحق بأسلابها
ولما أبى الله أن تملكوا ... دعينا إليها فقمنا بها
ونحن ورثنا ثياب النبى ... فلم تجذبون بأهدابها
لكم رحم يابنى بنته ... ولكن أرى العم أولى بها

فعارضه تميم بحديث ممتع نجتزئ ببعضه فقال :

ألا قل لمن ضلّ من هاشم ... ورام اللحوق بأربابها
أعباسها كأبى حربها ... علىٌّ وقاتل نصَّابها
بنى هاشم قد تعاميتمو ... نخلوا المعالى لأصحابها
أعباسكم كان فى بدره ... يذود الكتائب عن غابها
وفينا الإمامة لا فيكمو ... ونحن أحق بجلبابها

ألسنا لباب بنى هاشم وسادتكم عند نُسابها

ولو كان تميم من أصلاب اليهود كما زعم البعض ما تفتقت سليقته عن غضبة الثائر لآبائه ، فمن مبادئ علم النفس أن رحم الرجل تظل موصولة الوشائج بآبائه يدفعها إلهام الفطرة والغريزة السليمة فيجيش صدره بما طبع على صفحته

وما أصدق تلك المشاعر فى تميم وهو يرثى جده الحسين فيقول :

ثوت لى أسلاف كرام بكربلا

هُمُ لثغور المسلمين سداد

أصابتهم من عبد شمس عداوة

وعاجلهم بالناكثين حصاد

فكيف يلذ العيش عفواً وقد سطا

وجار على آل النبى زياد

وقال معتزا بأبيه وبسلطان الدنيا الذى دان لهم :

أنا المفتخر البالغ بالفخر مدى الفخر

أنا السيف الذى يفرى أنا الغيث الذى يقرى

أنا الصبح أنا الشمس أنا البدر الذى يسرى

أنا ابن الأنف الشم أنا ابن الأنجم الزهر

وسما به الفخر بأبيه فقال :

أنا ابن المعز سليل العلا وصنو العزيز إمام الهدى

سما بى معد الى غاية ‏ من المجد ما فوقها مرتقى

فَرُحْتُ بها فاطمى النجا ‏ ر حسينيه علوى الجنا

وإنا لقوم نروع الزما ‏ ن ولسنا نراع إذا ما سطا

ثم أثنى على أبيه ، والثناء الطيب ما كان سجية غير مأجور ، فقال :

إن المعز الملك الأغرا

لم يبق من بذل نداه حرا

قد ملك الناس معاد الدهرا

وإن غدا أسنى وأعلى قدرا

لولاه لم نلق الندى والبرا

ولا رأينا الجود فينا جهرا

ثم تغنى بحلو الغزل فقال :

وشادن شرط الصبا مرهف ‏ قرة عينى من تمناه

كأنما الحسن رأى وجهه ‏ إليه محتاجا فأغناه

ولاح برق الثغر من مبسم ‏ المسك والقهوة مجناه

وقد اخترنا من أزاهيره القليل النافح العطر وديوانه جليل القدر لا يتسع له مقام أفرد لأبيه .

ومات تميم عام ٣٧٤ فى خلافة أخيه العزيز فتفجع فيه وسائر أهله ومجتمع المدينتين مصر والقاهرة .

أمير المؤمنين

تركنا المعز فى قصره بين أبنائه واخوته وحاشيته يخلد فى الظاهر إلى الراحة والتهجد والعبادة فى بقية رمضان من سنة ٣٦٢ ولكنه كعادته دائم الحركة فكان يستقدم جوهرا كل ليلة يستمع منه أحداث البلاد داخلها وخارجها وموقف العناصر المتنافرة من سكانها فقد كان أهلها من السلالات القبطية الباقية على المسيحية والتى اعتنقت دين الإسلام، ومنها سلالات العرب الذين نزلوا الحوف الشرقى وأسفل الأرض وسائر بلاد الصعيد، وفيهم الذين بالدروب ومسالك مصر الشرقية والغربية وأقاموا على بداوتهم، وفيهم بقية من الترك ممن ترك بنو طولون والاخشيديون فكان كل يدين بالعنصرية ويحن إلى القبيل.

أما الشيعة فقد تجمعت حول القاهرة معتزة بإمامها وملتقى أمانيها فأعد المعز للجميع صدره الرحب فتجاوز عن مسيئهم، وأدب الخارج منهم عن الجماعة، وتألف النافر.

وأخذ يدرس أمراض مصر الإقليمية وما جنت على أهلها من الفجائع وأزمات الغلاء والقحط فرد ذلك جميعه إلى النيل الذى كان إذا شاء بعد مشيئة الله أحياها وإذا شاء تجافى عن سقياها فتجلت بديهته وحسن تقديره وخرج على الناس بسياسة رشيدة اغتبط بها الناس .

ذلك أنه كان من العادات المرعية إذا بدأ النيل فى فورته أن يقوم المنادون كل يوم بشهر أحواله ليعلمها الناس فأمر بابطال ذلك لأن الناس كانوا يتخوفون كثيرا إذا سمعوا أن النيل توقف عن الزيادة فى ابان الغمر فيكتنزون الغلال ويمتنعون من بيعها طمعا فى الكسب بارتفاع السعر ويحاول الأثرياء شراء المزيد من الغلال ليبيعوها بسعر عال فكان من وراء ذلك الغلاء والقحط وما أشبه الليلة بالبارحة .

لهذا أمر المعز أن يكتب له ولوزيره جوهر فى كل يوم من أيام زيادة النيل بما زاده الله فى مائه فلا يطلع عليه الجمهور إلا آخر الأمر بعد أن يستقر الحال فاستراح الناس وكف التجار عن اكتناز الغلال وإخفائها ودرت الأرزاق وعم الرخاء والاستبشار بالدولة البكر وجاء عيد الفطر فخرج أهل مدينة مصر إلى القاهرة ليروا خليفتهم لأول مرة فى موكبه وتعاقبت صفوفهم شمالى القصر عند باب العيد وقد اصطف للمعز عشرة آلاف فارس .

وكان مصلى العيد بناء جميلا عليه قبة عظيمة خارج باب النصر فطلع

المعز على الناس وعلى رأسه الألوية وحوله القباب من المحمل فترجل عند المصلى وأقام صلاة العيد وقد ذكرنا تفصيلها فى موضعها من آدابه .

وكانت المصلى حافلة بأهل مدينة مصر من سائر الملل والنحل الإسلامية فاطمأن الجميع للصلاة خلفه وفق شعائر مذهبه وتقاليده .

فلما فرغ من الصلاة صعد المنبر وسلم على الناس يميناً وشمالا ثم أفيض عليه ستر كان على المنبر فحجبه عن الأنظار ولعل ذلك ليستكمل روعته فلا يرى الناس منه خللا فى عمل من سنن الإمامة وربما كان ذلك ليتمكنوا الخليفة من تلاوة الخطبة من سطور فى درج يحمله وقد روعى ذلك مع بقية الخلفاء ولو أن المعز كان فى غنى عن التحفظ لكفايته التامة وقدرته العظيمة على الارتجال .

وكان فى أعلى درجة من المنبر وسادة من ديباج مثقل أعدت له فجلس عليها بين الخطبتين واستفتح ببسم الله الرحمن الرحيم وفقا لتقاليد الشيعة الموروثة عن الأئمة .

وكان معه على المنبر وزيره جوهر وعمار بن جعفر وخادمه شفيع الذى يحمل المظلة على رأسه فى الموكب .

وخطب الناس على سجيته أول خطبة سمعها المصريون وفيهم الأشراف العلويون والعلماء والحفاظ من أهل السنة وكبار الأمراء وسادات البلاد فبهرهم ذلك السياسى الحازم والقائد المجرب حين قلب إماماً بعيد المدى فى دينه وخشوعه وخضوعه لربه وملك مشاعرهم واستهوى ألبابهم حتى أبكاهم .

وانصرف فى عسكره وأولاده الأربعة فى الدروع السابغة وأمام الموكب فيلان عظيمان حتى دخل القصر فأحضر النـاس ومد لهم سماطا عظيما فى أكبر قاعة بالقصر وجلس بينهم وعتب على من تأخر منهم .

وبعد أيام حانت للمعز بعض العادات التى توارثها المصريون فأقرهم عليها الإسلام من عهد الفتح وأفسح الخلفاء وولاتهم صدورهم لها بل شاركوهم فى احيائها إلا ما تعارض منها مع آداب الدين، وكان النيل قد أوفى فخرج المعز ليشهد حفل كسر الخليج وتنقـل على الشاطئ حتى بلغ بنى وائل ومن خلفه وجوه النـاس وكان يسايره من خاصتهم أبو جعفر أحمـد بن نصر ويسمى له المواضع التى يجتازها .

ولأول مرة جهر المصريون له بالدعاء فقد ذاقوا عدله ولمسوا رفقه وعطفه لمـا هم جنود المغاربة يغتصبون بيوتهم وأنطق ألسنة الحمد بصدقاته وبدرات الذهب التى كان يلقيها عليهم كلما خرج فى موكبه .

وعطف بعـد كسر الخليج إلى بركة الحبش ثم إلى الصحراء والخندق الذى أسكن به المغاربة من جنده ومر بقبر كافور الاخشيدى فترحم عليه وذكر صنيعه وصدق ولائه وحسن جواره وزار بعده قبر عبد الله ابن طبـاطبا الحسنى وهو الذى نسب إليه ابن خلـكان ما نسب من مقابلة المعز والقدح فى نسبه للحسين وقد فصلنا ذلك فى موضعه، ثم عاد المعز بعد ذلك إلى القصر .

وهلّ ذو الحجة وهو الموسم الأكبر للحج وكان المعز قد صنع مظلة عظيمة

للكعبة المشرفة فأمر بنشرها على إيوان القصر يوم عرفة ليراها الناس قبل إرسالها إلى الحرم الشريف فكانت أول سنة سنها ملك من ملوك الإسلام لعرض هدايا الكعبة وأكسيتها على جمهور المصريين تشويقا للحج وتنشيطا للهمم وإعظاما لمناسك الحج وشعائره .

وهل عام ٣٦٣ هـ وجاء يوم عاشوراء وذكرى مقتل الإمام الحسين رضى الله عنه وهو يوم حداد عند الشيعة فنشط جمهورهم بالتظاهر والمناداة بالمراثى عند مشهد السيدة نفيسة والسيدة كلثوم ولحق بهم جنود المغاربة من كتامة وزويلة فأقاموا المناحة على الحسين فاحتك بهم أهل مصر من مذاهب أهل السنة فاعتدى عليهم رجال من الشيعة وكسروا أوانيهم وشققوا روايا السقائين وسبوا كل من تظاهر بالسرور أو التوسعة على نفسه وعياله فى ذلك اليوم فثار عليهم بقية الناس وتلاحموا وأقفل الناس البيوت والمتاجر وكانت فتنة حمل خبرها إلى المعز فأمر بأن يمشى العقلاء بين الناس بالنصيحة والتوفيق وظن الشيعة أن المعز يناصرهم ويسايرهم على نزعاتهم فقويت نفوسهم وجهروا بسب الصحابة حتى أن رجلا منهم سب السيدة عائشة رضى الله عنها فغضب المعز وأمر به فشهر بين ملأ الناس ثم ضربت عنقه .

فازداد جمهور الناس ايمانا بسلامة عقيدته واعتداله واستغفروا من ظن السوء به .

وجاء النيروز أول يوم من شهر توت القبطى وكان عيدا مصريا تعطل فيه الأسواق ويقل سعي الناس فى الطرق وتمنح الكسى لرجال الدولة ولكن الناس كانوا قد أسرفوا فى المنكر من أعمالهم فيه فكانوا ليلة النيروز يوقدون النار فى الدروب والسكك وفى الصباح يقذفون بعضهم بالماء مخلوط بالخمر وقشر البيض ويتصافعون بالانطاع ويطوفون الأسواق فى لعب ومرح ثلاثة أيام متوالية فنهى المعز عن صب الماء وإيقاد النار والمصافعة وشدد عليها النكير فلما أصر الناس عليها حبس بعضهم وشهر بآخرين .

تلك بعض العادات والمواسم التى كانت تعرض للمعز من حياة المجتمع المصرى فصلنا بعضها تنويرا لآراء المعز فى الأخلاق والعادات المصرية .

ولقد خلفت للمعز بعض الدول البائدة طوائف من الجند كانوا فلولا من أيام الاخشيديين وأيام كافور فأصبحوا عالة على مالية الدولة يتبعون كل ثائر ويؤيدون كل خارج ليكون لهم حظ من الغنائم والأسلاب وقد ناصروا القرامطة على جيش جوهر فاستمالهم بالمال ثم عادوا إلى نصرتهم على المعز نفسه ولكن المعز لم ييأس من استصلاحهم فألحقهم بطوائف من جنده وأرضاهم بالأرزاق الموسعة فأمن خروجهم بعد ذلك ونال ثناءهم وثناء التاريخ على سياسته الرشيدة .

واستدنى منه يعقوب بن كلس الإسرائلى وكان من وجوه رجال كافور أهل الكفاية والمقدرة فى إدارة الدولة فاستجاب فيه إلى بديهة التحرى وصدق

الفراسة وهى أحسن مواهبه وقلده الخراج وجميع وجوه أعمال الحسبة والسواحل والأعشار والأحباس والمواريث والشرطة وأشرك معه عسلوج بن الحسن الكتامى وهو من خلصاء الكتاميين أسنده إلى يعقوب ليستقى من تجاريبه ويمتار من كثرة مرانه على أعمال الدولة وكتب لهما بذلك سجلا قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون وكان هذا نظام إشهار المراتب الرفيعة ليعلمها الناس، فجلسا من غد ذلك اليوم فى دار الامارة بجامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأعمال وأفسح المعز صدره لأرباب الكفايات والعقول الناضجة دون أن يلتفت إلى عقائدهم وأديانهم فقد كان للقبط حظ وافر فى دولته تقدم للرئاسة منهم كثيرون أشباه الرئيس فهد وعشرات من فحول صدر الدولة وكان شيخ الأطباء اسحاق بن سليمان الإسرائيلى حمله المعز من المغرب ولم ينس أثره من أبيه المنصور .

ووصى المعز ولده العزيز بأن يكثر من اصطناع ذوى الأقدار وأهل المعرفة بشؤون الدولة من سائر الأقطار فألقيت المقاليد إلى الروم والأرمن والمصريين وإلى كل من رفعه قدره وسما به ذكاؤه وإخلاصه وأمانته فقد كان أمير الجيوش بدر الجمالى أرمنيا وهو الذى جدد للفاطميين شباب دولتهم، وكذلك كان أرمنيا وزيرهم الصالح طلائع بن رزيق وسائر وزراء الحافظ لدين الله الفاطمى .

وأرضى المعز فهمه من حب العلوم واكتناز الكتب فشاد بالقصر مكتبة

الفاطميين التى ضرب بعظمتها الأمثال بكثرة مجلداتها ومصاحفها المنسوبة فكان بها آلاف الكتب فى الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ والفلك والكيميا والروحانيات. وفيها خطوط ابن مقلة وابن البواب.

وكانت خزائنها الأربعون فى أجمل ناحية من القصر يدخلها راكبا ويظل بها يختار من الكتب ما شاء ثم يعود.

ولم يقنع بمكتبة القصر التى جمعت آلاف المجلدات فحمل الكثير من الكتب إلى مسجد القاهرة وهو الجامع الأزهر وإلى مسجد ابن طولون والجامع العتيق، فحمل إلى الأزهر من المصاحف والختمات عددا عظيما ومكن الناس من القراءة والانتفاع بما فيها.

وسار ولده العزيز سيرته فأنفق الأموال فى زينة المسجد العتيق وابن طولون وتزويدهما بالمصاحف.

وحمل المعز من بلاد المغرب ومن الأندلس صناع التصوير وكل نوابغ الفنون الجميلة فكان أول من أفاد بمواهبهم زوجه السيدة تغريد فانها شيدت لنفسها مسجدا جميلا بالقرافة واستأجرت له رجالا من كتامة يسمون المزوقين كانوا يزوقون الجدران بألوان متعددة من الأصباغ إذا نظرت إليها من ناحية كانت صورة تغاير الحقيقة، وكذلك إذا نظرت إليها من ناحية أخرى. وكان رئيس الجماعة رجلا اسمه الكتامى صنع صورة ليوسف عليه

السلام وهو فى الجب عريان والجب كله أسود فكانت أول أثر للتصوير الفاطمى فى صدر الإسلام قرأنا عنه ولكننا مع كثير من الأسف فقدنا أثره .

واعتاد المصريون بين الحين والآخر أن يطلع عليهم المعز بالجديد من آيات بديهته فقد كان محبا للجندية ونظامها تواقا إلى إنشاء معهد للدراسات العسكرية فبنى فى شمالى القصر ثكنات كبار الأبناء المصريين الأشداء ذوى الأعواد الصلبة والقامات المديدة واختار لهم كبار القواد المجربين فى فنون القتال فسبق بذلك أوروبا بقرون عديدة فى وضع أول أسس الفروسية وسماها حجر الغلمان وجمع بها خمسة آلاف فتى فنبغ منهم كبار الأمراء والقادة وكانت كتائبهم أسبق الجيوش المصرية نجدة للدفاع .

وقد تركنا أسطول المعز مرابطا بالمهدية فى مائتى سفينة فلما اتسعت رقعة ملكه ودانت له مصر وسوريا واليمن والحرمان الشريفان وخفقت رايته على مشارف المحيط الأطلسى وامتد نطاقها إلى المحيط الهندى ضاعف سفن الأسطول فتعددت بمصر دور الصناعة فكانت الصناعة بمدينة مصر واسكندرية ودمياط وتجاوز عدد السفن ستمائة قطعة من الشوانى والشلنديات والمسطحات وإلى جانبها العديد من السفن التجارية .

وكان النيل يومئذ يجرى لصيقا لمدينة القاهرة فكان ميدان محطة مصر الحالى بأسره مجرى له وكان للمعز منظرة عظيمة يشرف منها على الأسطول

ساحة العرض مكانها اليوم جامع أولاد عنان بأول شارع ابراهيم باشا فكانت السفن تجرى من صناعة مصر وتقوم بالمناورات بين يديه بأسلحتها ولبودها وترمى بالمنجنيقات وتفعل ما تفعله عند لقاء العدو ويحضر المقدم ورئيس الأسطول بين يديه. وكان عماد الأسطول رجال المغرب دون غيرهم يلحقون به على نظام التطوع فكانوا أسبق الغزاة إلى ركوب البحر والمخاطرة بأنفسهم .

وكان أعظم أثر خالد للمعز بسائر بلاد الشرق مدينة القاهرة التى تحمل اسمه ونسج حولها من حرمته وتقديسه فاختص بها نفسه وأهله وحاشيته وجنده وترك الفسطاط عاصمة للتجارة والاجتماع ورجال العلم والأدب والصناعة فكانوا يعملون نهارا فى دواوين القاهرة ومرافقها ولكنهم يعودون ليلا للمبيت بمصر ، وكانت قصبتها تمتد من باب الفتوح إل باب زويلة .

وكان لباب الفتوح من الحرمة والتقديس ماليس لغيره من أبواب القاهرة فاذا غضب المعز على أحد من الناس خرج الرجل إلى باب الفتوح مكشوف الرأس واستغاث بعفو أمير المؤمنين فيؤذن له بالحضور إلى القصر .

وكان محظورا على جمهور الناس أن يمروا بقصبة القاهرة بحمل تبن أو حطب، ولا يركض أحد فرسه بها، ولا يمر بها سقاء إلا غطى الروايا وكانت دروبها وشوارعها وحوانيتها ودورها تنار ليلا .

وبقيت القاهرة حاضرة الإسلام الكبرى كل أيام الفاطميين حتى زالوا

من الدنيا عام ٥٦٧ بعد أن بسط الله سلطانهم بمصر والشرق مائتين من السنين وازدادوا تسعا .

وشهد العاضد آخر الخلفاء مصرع الدولة وهو يجود بنفسه .

وكانت الأحداث المؤلمة والحروب الصليبية وتواتر الفتن قد عجلت محنتها فجاءها من سوريا صلاح الدين الأيوبى ومن ورائه نور الدين زنكى سلطان دمشق والخليفة المستضئ بالله العباسى وكلاهما ملح على هدم الفاطمية من الدنيا فقطع صلاح الدين خطبة العاضد من مصر ودعى للمستضىء العباسى فمات العاضد فى اليوم التالى وكان يوم عاشوراء يوم مات جده الحسين وكان فى الثانية والعشرين من عمره فحزن عليه صلاح الدين وجلس للعزاء فيه و بلغ الغاية فى توديعه إلى قبره ثم أخرج أهل الخليفة وأولاده وجعلهم منفردين فى دار على حدة وأبعد عنهم النساء حتى لا يتناسلوا حرصاً على إبادتهم .

واستطال أهل السنة على الشيعة بمصر وتتبعوهم وأذلوهم فأصبحوا لا يقدرون على الخروج من دورهم فهجروا البلاد .

وكان أشد الناس فجيعة فيهم عمارة اليمنى الشاعر العظيم، وما كان متشيعا بل كان سنيا فاستمالوه بسخاء أنفسهم و بذل نعمتهم فرثاهم وأبكى الناس وأذكرهم رثاء الأندلس وقال :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة

على فجيعتنا فى أكرم الدول

قدمت مصر فأولتنى خـلائقها

من المكارم ما أربى على الأمل

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة

لك الملامة إن قصرت فى عذلى

بالله زر ساحة القصرين وابك معى

عليهما لا على صفين والجمل

وقل لأهلهما والله ما التحمت

فيكم قروحى ولا جرحى بمندمل

ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة

فى نسل آل أمير المؤمنين على

مررت بالقصر والأركان خالية

من الوفود وكانت قبـلة القبل

فملت عنها بوجهى خوف منتقد

من الأعادى ووجه الود لم يمل

أسبلت من أسف دمعى غداة خلت

رحابكم وغدت مهجورة السبل

وبلغ من حب عمـارة للفاطميين أنه ائتمر مع نفر من دعائهم وأرادوا

الوثوب بصلاح الدين والعودة بدولتهم، ففطن بهم صلاح الدين فصلبهم على أعجاز النخل وكان عمارة أول من صلب .

والغريب المشاهد من أمر هذه الدولة العظيمة أنه مات فى سبيلها شاعران من أكبر شعراء العربية فقتل ابن هانئ يوم إقبال الدولة وصلب عمارة اليمنى فوق نعشها وكلاهما مات ضحية الحب والإخلاص .



دائرة المعارف الاسلامية

أوفى مرجع عن الحضارة الإسـلامية

تصدرها

لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

احمد الشنتناوى . عبد الحميد يونس

ابراهيم زكى خورشيد . حافظ جلال

تم إصدار المجلدات الخمسة الأولى

وصدر العدد السادس من المجلد السادس

الاشتراك السنوى عن ستة أعداد خمسون قرشاً

ادارة اللجنة

١٤ شارع حسن الأكبر مصر . ت ٤١٣٧٥

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

الكتاب الخامس

محمد عبده **للدكتور عثمان أمين**

يصدر فى يوليه سنة ١٩٤٤

ملتزم الطبع والنشر

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابى الحلبى وشركاه